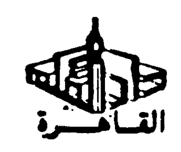
الأستاذ محمد يتيم

عضو في المكتب التنفيذي لحركة الإصلاح والتجديد

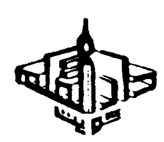
العمل الإسلامي والاختيار الحضاري

الطبعة الثالثة للكتاب
الطبعة الأولى للناشر
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

ملتزم التوزيع



دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ ش القصر العينى - الدور الثانى/شقة ٤
تليفون وفاكس : ٣٥٥١١٠٥
ص.ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

العمـــل الاســلامــي

والاختيار الحضاري



بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

تجتاز الأمة الاسلامية مرحلة حرجة في صراعها من أجل البقاء والخروج منتصرة في معركة الاحتواء الحضاري : إذ لا بقاء لها ولا نصر إلا بالإسلام، أما الاسلام ذاته فباق ما بقيت السماوات والأرض، تكفل الله بحفظه ورعايته. والمشكلة مشكلة الأمة الاسلامية بخصائصها ومميزاتها وبعزتها وقوتها وثقلها التاريخي. المشكلة في بقاء الأمة نموذجا يقيم الشهادة على العالمين ويقدم للبشرية نموذج الهداية والوسطية والنجاة في الدنيا والآخرة، أو في عدم بقائها وانهزامها ـ لا قدر الله ـ في معركة الاحتواء الحضاري أمام الأمم التي تتهافت عليها كما تتهافت الأكلة إلى قصعتها.

وانتصار الأمة الاسلامية في معركة الاحتواء الحضاري رهين بعد نصر الله وتوفيقه وحفظه بمدى رشد طليعتها المتمثلة في الدعاة إلى الله عز وجل أي بمدى قدرتها على أن تكون في مستوى الاسلام إدراكا لحقيقته وآدابه وحكمته، وامتثالا وعملا بتلك الحقيقة وتلك الآداب، ومدى إدراكها وفقهها لسنن التغيير الحضاري وإقامة الحجة على أبناء العصر بلغة العصر. وواضح أن إقامة الحجة ينبغي لها ـ بالاضافة إلى العلم بأصول الدين وآداب الدعوة ـ العلم بمواطن الداء والخلل في

جسم الأمة الاسلامية وترتيب الأولويات في عملية علاجه إذ أن كل تقديم أو تأخير أو استعجال أو تلكؤ أوخور يترتب عنه اضطراب سير الدعوة بل نكوصها وتراجعها، فيفسد الدعاة من حيث أرادوا أن يصلحوا، ويسيئون من حيث أرادوا أن يحسنوا.

لذلك كان لابد للدعاة من حين لآخر أن يقفوا وقفات للمراجعة والمحاسبة يعرضون فيها نياتهم وتصوراتهم وأعمالهم واجتهاداتهم على ميزان الاسلام وبعض بدهياته التي تبهت أحيانا في المشاعر والتصورات والسلوكات، ويتراكم عليها غبار النسيان تارة أخرى ويلفها ويغطيها الشعور بالجدارة والكرامة عند الله بسبب الانتساب إلى صفوف الداعين إليه، كل ذلك في زحمة الحركة وتحت تأثير العدوى التي يمكن أن تتسرب إلى العمل الاسلامي من العمل السياسي الحزبي. وهي محاولة تحتاج إلى تجرد و استعداد للرجوع إلى الحق والصواب مهما خالف مألوفات وحساسيات ورواسب تجارب ماضية بلا خوف أو وجل، ودون الوقوع تحت تأثير استفزاز الشعارات وعقلية المعارضة من أجل المعارضة التي أنشأتها تجارب سياسية حزبية، فأصبحت تتحكم في التصورات والمفاهيم الموجهة للسلوك الدعوي لكثير من الدعاة، وتعطل أي مبادرة، وتضعف طاقة التنفيذ والاقدام في الاتجاه الحقيقي للعمل (المجتمع) بتوجيه الجهود والطاقات الى مناقشات وجدالات كان أولى أن تصرف الى حيث كان ينبغي لها أن تصرف، وأن تقتصد من أن تهدر في متاهات لا حاجة لطاقة الدعوة أن تبدد فيها.

وهذه وقفة نقدمها بين يدى جمهور الداعين، سائلين الله عز وجل فيها الاخلاص والصواب، نقدم فيها تصورات ومفاهيم دعوية وحركية تبلورت من خلال حوار واستقراء لتجارب داخلية وخارجية واستفادة من آراء رجالات الحركة الاسلامية. فنحن لا نزعم أننا فيها مجددون ومبـدعـون، ولكن إن يكن لنـا فيهـا من فضل فهو فضل الصياغة والجمع والتبويب فإن أحسنا فمن الله عز وجل، وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ـ محمد يتيم ـ

الفصل الأول
في مقومات العمل الاسلامي

تقوم كل دعوة دينية أو وضعية على أسس ومقومات تكون بمثابة المقاييس التي يزن بها أفرادها جهودهم، ويقومون من خلالها سلوكهم ويعرفون بها مدى تحققهم بمثل الدعوة التي يحملون والقيم التي من أجلها يجاهدون، ويقيسون بواسطتها النجاح الذي يحرزون على توالي الأيام والسنين. ولما كانت الدعوة الاسلامية دعوة ربانية في أصلها فإن قيمها ومقاييسها تلك تنبثق انبثاقا ذاتيا من طبيعة العقيدة التي تدعو لها وتجاهد في سبيلها. إن العقيدة الاسلامية عقيدة يتسع فيها تصور المؤمن للحياة فلا يقف عند ضيق الدنيا بل يتجاوزه إلى سعة الآخرة. والقيم المنبثقة من العقيدة الاسلامية والمقاييس الناشئة عن تمثلها لا تقف عند العمل الظاهر بل تنفذ إلى المشاعر الملازمة له، ولا تقف عند النتائج القريبة للعمل الظاهر بل تتجاوز ذلك إلى نتائجه البعيدة سواء في عالم الغيب أو عالم الشهادة.

ومن بدهيات التصور الاسلامي أن الدنيا دار بلاء واختبار ينجح فيها الانسان بمقدار ما قدم من عمل حسن سواء كان هذا العمل تعبديا فرديا، كالصلاة والصيام والزكاة وغيرها من أعمال

الجوارح والقلب والفكر، أو كان عملا جماعيا كالدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيل إقامة دينه وإعلاء كلمته. قال تعالى: « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »[1].

والقيم التي يزن بها هذا الدين العمل الحسن قيم شعورية معنوية عبرت عنها نصوص القرآن والسنة وأقوال السلف بالاخلاص والنية والقصد والارادة والابتغاء، وقيم عملية تعبر عن الاستسلام والطاعة والامتثال، والحسن الظاهري للفعل. وقد عبرت نصوص القرآن والسنة وأقوال السلف عنها بمصطلحات مثل الاتباع والصواب، وعكسها المحدث والبدعة وما ليس عليه الأمر. وقد اشترط العلماء اجتماع هذين الركنين والتقاء هذين المقومين في كل عمل من الأعمال حتى يكون عملا حسنا ومقبولا. قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالى: « ليبلوكم أيكم أحسن عملا ». قال أخلصه وأصوبه، وقال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل. وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا وصوابا. قال: والخالص أن يكون لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة. وقد دل على هذا الذي قال الفضيل قوله تعالى: « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[2]

---

١) سورة الملك ـ الآية رقم ١

٢) الكهف ـ الآية ١١٠

ونظرا لأهمية هذه المقومين جعلهما الامام أحمد بن حنبل اثنين من ثلاثة أصول اعتبرها أصول الاسلام. فقد روي عن الامام أحمد بن حنبل أن أصول الاسلام ثلاثة أحاديث: حديث « إنما الأعمال بالنيات » وحديث « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » وحديث « الحلال بين والحرام بين » قال ابن رجب الحنبلي: « فإن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقف على الشبهات. وهذا كله تضمنه حديث النعمان بن بشير (يقصد حديث الحلال بين والحرام بين)، وإنما يتم ذلك بأمرين أحدهما: أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السنة وهذا هو الذي تضمنه حديث عائشة: « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » والثاني أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه الله عز وجل كما تضمنه حديث عمر « الأعمال بالنيات »[2].

ولعل أخطر ما تؤتى منه الدعوة الاسلامية أن يفسد عند أبنائها القصد من العمل الاسلامي فتختلط في أذهانهم الغاية من انتسابهم للدعوة ومن التزامهم بالدين أصلا، ويفتر الإتباع أو يغيب فيركنون إلى اجتهاداتهم العقلية فحسب، دون أن يكون لهم في منهج هذا الدين في الدعوة هدي، وتسري فيهم عدوى أساليب الحركات الوضعية في الدعوة والحركة، فيطغى التحليل السياسي على الاعتبار العقدي والبعد الآني المستعجل على البعد الحضاري ذي النظر البعيد حتى لا

٢) ابن رجب الحنبلي - جامع العلوم والحكم. دار الطباعة والنشر - بيروت لبنان ص ١٠

تكـاد تجد في دعـوتهم وحـركتهم صبغة هذا الدين ومسحته الربانية فتستحل الغيبة ويتلذذ بها في المجالس ويفشو سوء الظن ويصير بعض أعداء الدين أولى عند بعضهم من إخوة العقيدة والدين، لما صادفوا في نفسه من هوى سياسي. لذلك تكون إعادة ترتيب هذه التصورات في العقلية والنفسية الاسلامية من أول الأولويات.

١ - نحو تصحيح النية وإخلاص القصد

إن التزام الفرد بالاسلام وما يترتب عنه من التزامات في النفس والفكـر والسلوك، وعلى رأسها الدعوة إلى الله عز وجل مسألة فردية بالأساس. إذ ينبغي أن تكون غاية الفرد من وراء ذلك الالتزام ابتداء هي: أن يلقى الله وهو عنه راض، أن ينجو من عذاب الله ويزحزح عن النـار ويدخـل الجنـة. فقـد حدد القـرآن غاية الغـايات ونهاية الأمنيات، وحقيقـة الفوز الذي ليس بعده فوز فقال تعالى: «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»[٣] وهو بهذا الوضوح واليقين لن يقيس علاقته بربه بما يصيبه في طريقه من نجاح أو فشـل، أو بما يلقـاه من ابتـلاء وصد وإعراض فليس النجاح في الأرض دائما دليلا على الكرامة عند الله، وليس الفشل الظرفي دليلا على المهانة عند الله. إن علاقة المؤمن بالله لا تتحدد بتلك المقاييس،

---

٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٨٥.

فهو قد فرغ منها منذ أن أسلم أمره كله لله ، وهي على كل حال مقاييس القلوب الفارغة من الايمان ، حكاها الله عن أهل النفاق في سورة النساء فقال تعالى : « وإن منكم لمن ليبطئن. فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة يليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما »[٤]. أما المومن فقد أدرك حقيقة الصفقة فشرى الدنيا بالآخرة وتيقن أن قد ربح البيع فلم يقل البائع ولم يستقل : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسنوتيه أجرا عظيما »[٥].

وسواء عند الانسان المؤمن الذي يعمل من أجل هذه الغاية تحقق النصر على يديه أو لم يتحقق ! فالعبرة بمقصود الانسان من عمله : هل كان يقصد به ربه ويبتغي به مرضاته فتصبح مسألة النصر أو الهزيمة الدنيوية سيان في حس المؤمن ؟ أم كان يبتغي به الاستعلاء على الناس والفساد في الأرض ؟ وإذ ذاك لن ينفعه النصر الدنيوي لأن الخسارة الحقيقية متحققة في الآخرة « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. ألا ذلك هو الخسران المبين »[٦].

إن الجهاد والعلم والانفاق قد تكون أسبابا تؤدي بصاحبها إلى النار إذا لم يقصد بها وجه الله عز وجل ولم يصرفها صاحبها إلى تحقيق

٤) سورة النساء - الآيات ٧٢ - ٧٣.

٥) نفس السورة - الآية ٧٤

٦) سورة الزمر - الآية ١٥

مرضـاتـه، فعن أبي هريرة رضي الله عنـه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت، قال : كذبت ولكن قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال ما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت القرآن فيك. قال كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارىء. فقد قيل، ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. فقال : فما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من سبيل تحبه أن ينفق فيه إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار »[٧] وفي الحديث : أن معاوية لما بلغه هذا الحديث بكى حتى غشي عليه، فلما أفاق قال : صدق الله ورسوله، قال الله عز وجل : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها. وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار »[٧].

إن النصر الدنيوي أيضا ليس دائما دليلا على الكرامة عند الله عز وجل، وإن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر كما يخبر بذلك

---

٧) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما / سورة هود الآية ١٥ - ١٦ .

الحديث النبوي الشريف. وقد تنقضي الآجال وتنتهي الأعمار دون أن يتحقق النصر الدنيوي، ويكون الموت في سبيل الله قبل أن تنضج الثمرة ويحين قطافها، وسام شهادة يمن الله به على من يشاء، ويكون القرح الذي يصيب الصف المؤمن مظهرا من مظاهر سنته في خلقه القاضية بمداولة الايام بين الناس: « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »[٨].

والنية الصالحة قد تبلغ بالانسان المؤمن ما لم يبلغ الجهاد بالمجاهد الذي يريد أن يقال فيه شجاع، والانفاق بالمنفق الذي يريد أن يقال فيه جواد، والعلم بالعالم الذي يريد أن يقال فيه عالم، فقد يموت الانسان في الفراش وهو عند الله بمنزلة الشهداء، وقد يقتل الانسان في ساحة الجهاد دون أن يدرك شرف الشهادة. فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، ورُبَّ قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته »[٩]. وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى »[١٠]. وعن أنس رضي الله عنه

٨) آل عمران ـ الآية ١٤٠ - ١٤١

٩) أخرجه الامام أحمد.

١٠) اخرجه الامام أحمد والنسائي.

قال : « رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال : إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا حبسهم العذر »[11]

إن كثيرا من مظاهر الاعياء المبكر الذي أصاب كثيرا من الشباب الاسلامي يمكن تفسيرها بذلك الغبش الذي واكب الالتزام بالعمل للاسلام عند هؤلاء، فلم يكن ذلك الالتزام مبنيا على أساس عقدي متين قوامه تحقيق الخلاص الذاتي والقيام بالتبعة الفردية بقدر ما كانت تحت تأثير المزايدة على الحركات السياسية الوضعية أي تحت الرغبة في التأكيد على أن الاسلام يمتلك برنامجا للتغيير السياسي والاجتماعي هو الآخر. وسرعان ما تبخرت تلك الآمال في قيام النظام الاسلامي تحت تأثير العجلة والتسرع والتهور الذي جلب على الدعوة متاعب لما يصلب عودها بعد لتحملها ومواجهتها، ففتر الالتزام بالاسلام وغابت الحماسة لما تعثرت الخطوات في سبيل بناء الحياة الاسلامية. وقد غاب عن هؤلاء أن الغاية النهائية في العمل الاسلامي ليست هي الوصول إلى السلطة بمختلف الطرق الشرعية. فما السلطة بحد ذاتها سوى وسيلة لتحقيق مرضاة الله عز وجل وتحقيق معنى العبودية ونشر الدعوة في مجال أوسع ومساحة أكبر. ذلك أن المهم في نظر الداعية ينبغي أن يكون هو تحقيق خلاصه الفردي أولا، ليزحزح عن النار ويدخل الجنة وإلا فماذا سينفعه النصر السياسي إذا كان مصيره هو النار ؟ وثانيا تحقيق المعاني التي يريدها الاسلام سواء ابتلاه الله بالسلطة أم بقيت في يد غيره بل إن آداب السلف الصالح تعلمه

(11) رواه البخاري.

أن يدخر أرجى أدعيته لمن بيده الأمر عسى أن ينصر الله به الاسلام.
ثم إن مهمة الدعوة لا تنتهي عندما يتمكن الاسلام من بقعة في الأرض. فالدعوة دعوة للعالمين، والجهاد ماض إلى يوم القيامة. إن العمل الاسلامي في هذه الحالة يواصل مسيرة الاصلاح، فما التمكين إلا توسيع لدائرة المسؤولية والتكليف: «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور»[(١٢)]

وقد احتل مبحث النيات عند علماء الاسلام مكانة هامة وأعطوه اهتماما كبيرا وفصلوا فيه واعتبروا حديث الاعمال بالنيات مساويا لثلث العلم، وتحدثوا عن تجديد النية كما روي عن سليمان بن داود الهاشمي أنه قال: «ربما أحدث بحديث ولي فيه نية، فإذا أتيت على بعضه تغيرت نيتي، فإن الحديث الواحد يحتاج الى نيات»[(١٣)]. ولمحمد الغزالي كلام في نفس المعنى إذ يقول: «إنني أقوم بالعمل أحيانا، فأشعر أني لم أكن فيه مخلصا كما ينبغي، غلبني حب الدنيا أو الاعتداد بالنفس فأحس الألم والندم، وأرى أني بهذا الخلط لا أصلح لولاية الناس وجعل كلمة الله هي العليا... ذلك أن الله عندما يهلك الظلمة لا يستخلف بعدهم ظلمة مثلهم! إنما يستخلف عدولا صالحين. قال تعالى موضحا سبيل من يؤيدهم من خلقه «وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله

١٢) سورة الحج - الآية ٤١.
١٣) جامع العلوم والحكم ص ١٥.

فليتوكل المتوكلون. وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعـودن في ملتنـا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الـظالمن ولنسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدي »(١٤).

٢ ـ الصواب في العمل الاسلامي ومقاييسه

هذا الشرط الثاني لا يقل أهمية في العمل الاسلامي عن الشرط الأول ، ذلك أن الاخلاص لوحده لا يقود لحركة صحيحة بل لابد من توفر الشرطين : الوعي وسلامة الارادة.

كما أن الحركة الصحيحة التي تنشأ عن هذين تعكس نفسها على شروط تكوينها فيتعمق الاخلاص ويتعمق الوعي أيضا(١٥): غير أن خطورة العنصر الثـاني تكمن في أن تحصيله يحتـاج إلى جهد ووقت وتـراكم طويل في الخبرة على مرور الزمن، بينما التغير في الارادة قد يحدث في لحظة واحدة كما حدث للسحرة حينما انقلبوا في لحظة من التبعية العمياء لفـرعـون إلى الايمان المتبصر المستعد لتقديم النفس قربانا لله .

وإذا تأملت في فتن وقعت في التـاريخ وتأرجحات تعاني منها مسيرة الدعوة في الحاضر وجدت أن المسلمين لم يؤتوا في لحظات كثيرة من نقص في إخلاص وصدق، وإنما من نقص في علم وقلة في معرفة.

١٤) محمد الغزالي. مشكلات في طريق الحياة الاسلامية ص ١١٣.

١٥) خالص جلبي. النقد الذاتي ص ٢٩٨.

فقديما استباح الخوارج دم علي بن أبي طالب، وكفروه هو ومن ليس معهم على ماكانوا عليه من الفهم للدين، حتى إن المسلم كان يؤثر أن ينسب نفسه عندهم للكفر المستجير بأهل الايمان حتى ينجو من سيوفهم. ومع هذا الفهم السقيم للدين وما ترتب عنه من مآسي وما أريقت بسببه من دماء فإنهم كانوا طلاب حق مخلصين في طلبه، حتى إن عليا لما سئل عنهم: يا أمير المؤمنين ما تقول في الخوارج أكفارٌ هُمْ ؟ فأجاب رضي الله عنه: من الكفر فروا ؟ ولما سئل: ومنافقون هم ؟ فأجاب رضي الله عنه: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا وأولئك يذكرون الله كثيرا. ثم قال قولته المشهورة: أليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه[16]. وأقر علماء الاسلام مقالة الشاعر:

كل الخوارج مخط في مقالته ... ولو تعبد فيها قال واجتهدا

فقال الحسن البصري رحمه الله مصورا آفة ذهاب العلم عند الخوارج قائلا: «العالم على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا»[17].

---

16) خالص جلبي: النقد الذاتي، ص ٣٧.

17) نقلا عن مقال د. القرضاوي: «ظاهرة الغلو في التكفير» مجلة المسلم المعاصر - العدد ٩ - يناير، فبراير، مارس ١٩٧٧

ولعل الدعوة الاسلامية اليوم لم تؤت من قلة في عزيمة ورغبة في تضحية، بل من قلة في فقه لسنن الله الشرعية وسننه الكونية في النفوس والمجتمعات. فمن سلبيات الصحوة الاسلامية أنها لا تزال تفتقد إلى كثير من التأطير العلمي الكفيل بنقلها من مستوى اليقظة الوجدانية إلى مستوى الادراك الواعي لحقيقة هذا الدين ولحقيقة الواقع وللأسلوب الأمثل في تغييره دون مصادمة سنن الله الشرعية والكونية الاجتماعية « فالظاهرة الطاغية حتى الآن في قطاعات العمل الاسلامي هي الشباب المتعلق بالاسلام وليس الذين قطعوا شوطا كبيرا وتمرسوا وزادت خبرتهم واكتمل وعيهم ونضجت الحلول في أدمغتهم. ويجب ألا يكون مجال ضغط الطبقة الأولى المتحمسة عاملا حاسما في تبني الرأي للطبقة الثانية »(١٨).

أ ـ الصواب موافقة للسنن الدينية التشريعية

إن فقر الثقافة الشرعية عند الدعاة من أكبر الأخطار التي تهدد مسيرة الدعوة الاسلامية، وقد بين النبي ﷺ أن الأمة تؤتى من غياب العلم فتكون المصيبة مزدوجة : مصيبة المفتي الذي يقول على الله بغير علم فيكون ضالا ومضلا، ومصيبة طالبي الفتوى الذين طلبوها من غير أصلها فضلوا وابتدعوا. فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : لا يقبض الله العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن

١٨) خالص جلبي : النقد الذاتي، ص ٢٩٨.

يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[١٩].

ويتخذ الجهل بالدين مظاهر شتى، كلها تؤدي بصاحبها إلى مجانبة الصواب والغلو والتطرف ومنها :

- التمسك بحرفية النصوص دون فهم فحواها ومعرفة مقاصدها ورفض التعليل والالتفات إلى المقاصد والأسرار خصوصا ما تعلق بالعادات والمعاملات مع أن الاستقراء الأصولي قد بين أن الأصل في العادات والمعاملات النظر في المقاصد والمصالح وفي الشعائر التعبد والاتباع. وقد يقلب غياب العلم الموازين فيعطل الفكر وينكر القياس بينما يطلق عنان الابتداع في مجال العبادات[٢٠].

- الاسراف في التحريم والميل إلى التشديد والتضييق بينما كان السلف يحتاطون كثيرا قبل أن يبادروا إلى التصريح بالتحريم امتثالا لقوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون »[٢١].

- التباس مفاهيم مهمة تتعلق بمصطلحات شرعية كالايمان والاسلام والكفر والشرك والنفاق والجاهلية وهي مفاهيم يترتب على عدم

١٩) متفق عليه.

٢٠) د. القرضاوي : الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف ص ٦٣.

٢١) نفس المصدر ص ٧٣.

وضوحها آثار من الخطورة بمكان في الحكم على الآخرين وتقويمهم وتحديد علاقتنا بهم، وذلك ناتج عن عدم تذوق اللغة وإدراك أسرارها مما يؤدي إلى خلط الحقيقة بالمجاز وعدم التمييز بين الايمان المطلق ومطلق الايمان، وبين الاسلام الكامل ومجرد الاسلام، وبين الكفر المخرج عن الملة وكفر المعصية، وبين جاهلية الخلق وجاهلية العقيدة، وبين الشرك الأكبر والشرك الأصغر وبين نفاق العقيدة ونفاق العمل[٢٢].

وليس من شك أن انعكاسات غياب العلم على حقل الدعوة خطيرة جدا. إذ تضخم الجزئيات على الكليات وتبنى الاجتهادات على الظنيات، ويغيب التمييز بين عناصر المرونة والثبات في الشريعة الاسلامية[٢٣]، بين ما هو أصيل في الشرع وبين اجتهادات فرضتها ملابسات خاصة من حياة الأمة الاسلامية، فيحل التعسير محل التيسير والتنفير محل التبشير، وتتضخم عقلية المحاكمة والادانة بدل روح الدعوة والرحمة. وفي غياب العلم أيضا تغيب الحصانة الفكرية الاسلامية فتصبح العقلية الاسلامية شفافة تتشرب بدون وعي قيما في الدعوة والحركة والتعامل تجد أصلها عند حركات التغيير الوضعية، فتكون سياسات الدعوة سياسات وضعية بدل أن تكون سياسات شرعية. وهكذا ففي غياب الحصانة العلمية الشرعية تقبع تلك القيم

٢٢) نفس المصدر من صفحة ٧٦ إلى ص ٨٤.

٢٣) انظر سعد الدين العثماني: في الفقه الدعوي، مساهمة في التأصيل الجزء الأول. منشورات جمعية الجماعة الاسلامية رقم ١

الفكرية الوضعية في الخلفية اللاشعورية لهؤلاء. فتحاكم اجتهادات القيادات الاسلامية ويتداول الحديث عن أخطائها بل قد يصل ذلك بالبعض إلى الاتهام في النيات والطعن في الولاء لله عز وجل والمؤمنين. وحينما يتم تحليل المضامين التي حملها مفهوم الولاء تجد أن الولاء تحول إلى مفهوم سياسي لا إلى مفهوم عقدي شرعي والأمر أن ما اعتبر ولاء للظالمين ما هو كذلك لمن أمعن النظر: « لكنه تفضيل بين المصالح واتباع لقاعدة الفقهاء في الحرص على أكبر المعروفين عند تعارضهما، ولو بتفويت أدناهما واحتمال أيسر المفسدتين العارضتين لابعاد أعظمهما.

ولقد أطال الامام ابن تيمية رحمه الله النفس في بيان هذه القاعدة وتصويبها والأمر بالعمل بها حتى إنه أفتى في هذا الباب إفتاءات يظنها من لم يخبر السياسة الشرعية غريبة معيبة. وأغلب هذه المواقف المنتقدة على الحركة مخرجة على هذه القاعدة في الموازنة بين مراتب المعروف والمنكر ودرجات المصالح والمفاسد »[٢٤]

ومن مظاهر الجهل بالدين الجهل بمواطن العبرة في سيرة النبي ﷺ. فسيرته ﷺ هي الترجمة العملية لمبادىء هذا الدين ولمنهج الدعوة إلى الله عز وجل. إنها تقدم أنموذجا تطبيقيا ومتكاملا لمفاهيم الاسلام وقيمه ودعوته، وأسس التعامل الحكيم بصوره المختلفة سواء في مرحلة

٢٤) محمد أحمد الراشد : العوائق ص ٣٢٣.

الاستضعاف والتكتم، أو في مرحلة الجهر بالدعوة والقوة، أو في غيرها من الحالات، إنها تقدم أنموذجا كاملا لمراحل التطور المفترضة في العمل الاسلامي ـ بمختلف احتمالاتها ـ مما يجعلها خزانا هائلا لا ينضب من قيم التعامل مع مختلف أشكال الوقائع التي يمكن أن تعايشها الدعوة الاسلامية المعاصرة.

فقد مرت الدعوة الاسلامية بمرحلة التكتم والاسرار، والتربية والاعداد ثم بمرحلة مجابهة المخالفين بحقائق الدعوة : وأنت تجد في هذه الحقبة نماذج من الاستكبار على الحق والاصرار على الكفر وعقيدة الأباء والأجداد ونماذج من جميع أساليب المواجهة المفترضة والممكنة لدعوة الحق، انطلاقا من أسلوب المساومة وسياسة المفاوضات، ومرورا بأساليب الحصار الاقتصادي والايذاء البدني والاخراج من الديار، وانتهاء بمحاولات التصفية الجسدية. ثم إنك ستجد، في الطرف الآخر نماذج من الصبر على التواءات النفس وضلالاتها، ونماذج من التحمل والدعوة بالتي هي أحسن فانقلب الأعداء أولياء منافحين عن الدعوة ومضحين في سبيلها بالغالي والنفيس.

وستجد أيضا نماذج من الحكمة في التعامل مع الخصوم، فقد لاين ﷺ وتحالف، واشتد وخالف، وضرب بحزم عند الضرورة، واتخذ لكل ظرف ما يناسبه من الوسائل، وأعد لكل مرحلة ما يلزم لها من الامكانيات، كل ذلك في حكمة بالغة بحيث كان يخرج من نصر إلى نصر أكبر منه فكانت سيرته نموذج التجربة الاسلامية الناجحة.

غير أن الاستفادة من مواطن العبرة في سيرته ﷺ تحتاج إلى فقه وعلم أيضا. ومن أخطر الأمور في هذا المجال عدم التمييز في سيرته ودعوته بين ما كان يفعله النبي ﷺ بوصفه إماما أي بين ما كان يدخل في باب السياسة الشرعية وبين ما كان يفعله بوصفه نبيا مبلغا عن الله عز وجل. وهو ما قرره الامام القرافي في كتابه الاحكام في الفرق بين الفتاوي والاحكام وتصرفات القاضي والامام حين ميز في تصرفاته ﷺ بين تصرفات بالرسالة، وتصرفات بالفتيا، وتصرفات بالقضاء، والحكم، وتصرفات بالامامة.

إن غياب هذا التمييز أدى في كثير من الأحيان إلى الانتقائية في التعامل مع السيرة وغياب الادراك الواعي لبعض تصرفاته ﷺ التي قد تختلف باختلاف الزمان والمكان، وبطبيعة المرحلة التي كانت تجتازها الدعوة في مرحلة من المراحل، بل قد تتخذ تلك المواقف قاعدة تستند عليها اجتهادات متباينة ومتضاربة في الدعوة ترفع تلك المواقف إلى مرتبة الأصول والثوابت بينما لم تكن إلا تصرفات في إطار السياسة الشرعية تدور مع المصلحة الدعوية وجودا وعدما[٢٥]

ب - الصواب موافقة للسنن الكونية

إن لله سننا شرعية أودعها كتابه وأجراها على سنة رسوله ﷺ وترجمتها سيرة الرسول ﷺ ترجمة عملية فكان خلقه القرآن كما تروي

---

٢٥) انظر : في الفقه الدعوى، مساهمة في التأصيل، الجزء الأول.

ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ وإن لله سننا كونية ـ أي نواميس تنتظم بها حركة الكون وحركة المجتمع.

وقد عبر القرآن عن هذه السنن أيضا بكلمات الله فهي أيضا كلمات شرعية وكلمات كونية. وعبر عنها أيضا بالارادة والقضاء وفيها كوني وشرعي أيضا. يقول ابن تيمية في كتابه «الفرقان»: «وأما لفظ الكلمات فقال في الكلمات الكونية (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق، ومن غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» وقال ﷺ: من نزل منزلا فقال: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر هي التي كون بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته. وأما كلماته الدينية وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار»(٢٦).

والسنن أو الكلمات الكونية ثابتة لا تتغير، وهي مضطردة فكلما كانت أسبابها إلا وتبعتها نتائجها. وهي ربانية أي أنها تعبر عن إرادة

---

٢٦) ابن تيمية: الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطن ص. ص ٦٣ دار الكتب العلمية. بيروت لبنان.

الله التي اقتضت أن تتصرف في الكون والنفوس من خلال سنن تمثل حكمته وتدبيره. وكونها ربانية لا تلغي إرادة الانسان، بل إن هذه الارادة ذاتها من أمر الله وكلماته والمؤمن يدافع القدر بالقدر.

يقول سيد رحمه الله: « هناك ناموس ثابت وسنن حتمية.. وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة. وهناك وراء الناموس والارادة والمشيئة حكمة مدبرة يجري كل شيء في نطاقها. والناموس يتحكم والسنن تجري في كل شيء - ومن بينها الانسان - والانسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الارادية المختارة، وبفعله الذي ينشئه حسب تفكيره وتدبيره، فتنطبق عليه وتؤثر فيه.. ولكن هذا كله يقع موافقا لقدر الله ومشيئته ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره. وإرادة الانسان وتفكيره وحركته وفاعليته هي جزء من سنن الله وناموسه يفعل بها ما يفعل ويحقق بها ما يحقق في نطاق قدره وتدبيره. فليس شيء منها خارجا عن الناموس والسنن، ولا مقابلا لها ومناهضا لفعلها كما يتصور الذي يضعون إرادة الله في كفة ويضعون إرادة الانسان وفاعليته في الكفة المقابلة. كلا، ليس الأمر هكذا في التصور الاسلامي.. فالانسان ليس ندا لله، ولا عدوا له كذلك. والله سبحانه حين وهب الانسان كينونته وفكره وتقديره وتدبيره وفاعليته في الارض، لم يجعل شيئا من ذلك كله متعارضا مع سنته - سبحانه - ولا مناهضا لمشيئته، ولا خارجا عن الحكمة الأخيرة وراء قدره في هذا الكون الكبير. ولكن جعل من سنته وقدره أن يقدر الانسان ويدبر، وأن يتحرك ويؤثر، وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق

عليه، وأن يلقى جزاء هذا التعرض كاملا من لذة وألم، وراحة وتعب، وسعادة وشقاوة. . وأن يتحقق من وراء هذا التعرض ونتيجته قدر الله المحيط بكل شيء في تناسق وتوازن »[٢٧].

وهكذا ففي مجال العمل الاسلامي فان من شروط تحقيق الغايات الوعي بالسنن والعمل من خلالها، وإن أي تخلف في النتائج إنما يعبر عن تخلف في الأخذ بالاسباب. ومن هنا يكون إدراك سنن التغيير الاجتماعي والحضاري إحدى أسباب النصر. وقد بين سبحانه أن من طبيعة السنن أنها شاملة عامة للناس جميعا مؤمنهم وكافرهم. قال تعالى: « كلا نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا »[٢٨]. فهي لا تحابي أحدا كافرا كان أم مؤمنا، فمن أخذ بأسبابها وصل الى النتيجة ومن اصطدم بها وحاول القفز من فوقها عوقب في الدنيا على الخطإ باعتباره قد خالف سنة الله في خلقه.

إن إخلاص النية لله عز وجل والحماسة للفكرة الاسلامية لا يكفيان لوحدهما، كما أنهما لا يضيفان ظل القدسية على العمل الذي يمكن أن يخطىء التقدير فيحاسب ويمتحن على الخطأ في الدنيا بينما يثاب على النية والسعي في الآخرة. وهكذا فالقرآن الكريم لم يجد حرجا في تناول أحداث غزوة أحد بالتحليل وتصوير الأخطاء وأسباب المحنة مع أنها محنة قاسية، فقد قال للمؤمنين (أو لما أصابتكم مصيبة

---

٢٧) سيد قطب: في ظلال القران المجلد الأول، ص ٥١٥ الطبعة التاسعة. دار الشروق.

٢٨) سورة الاسراء - الآية ٢٠.

قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم)[٢٩]. وقال لهم في كامــل الصراحــة (منكم من يريد الـدنيا ومنكم من يريد الآخرة)[٣٠]. فكون المعسكر معسكرا إسلاميا مؤمنا بالله عز وجل يقاتل من أجل إعلاء كلمة الله ؛ لم يشفع له ـ بصريح القرآن ـ في تحمـل التبعات التي تترتب عن الاخلال بشروط النصر وسننه ومنها طاعة أوامر القيادة، ووحدة الكلمة وعدم مخالفة التوجيهات العسكرية تحت تأثير الرغبة في الحصول على الغنائم.

٢٩) آل عمران الآية ١٦٥.

٣٠) آل عمران الآية ١٥٢.



الفصل الثاني

العمل الاسلامي بين التغيير السياسي.. والتغيير الحضاري

لما كان العمل الاسلامي في جوهره عملا إصلاحيا[1] للمجتمع فمن البديهي أنه لن يتأتى له أن يقوم بمهمته الاصلاحية تلك ما لم يعمل على تشخيص أدواء المجتمع وأمراضه تشخيصا صحيحا. فكل خطإ في التشخيص يستتبعه بالضرورة خطأ في العلاج المقدم وأساليبه. لذلك كان من أولى الأولويات تحليل أعراض الداء والرجوع به إلى أصوله وتطوره، وكان من الضروري أن نجيب إجابة واضحة ودقيقة على السؤال التالي :

ما طبيعة مشكلة الأمة الاسلامية : هل هي مشكلة سياسية أم مشكلة حضارية ؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال نبدأ بملاحظتين إثنتين :

أ - إن التحدي البارز الذي واجه المسلمين وهزهم بعنف منذ بداية القرن الحالي هو سقوط الكيان السياسي الاسلامي أي الخلافة العثمانية التي كانت رمزا لوحدة معظم بلدان العالم العربي الاسلامي

---

1) الاصلاح هنا بالمفهوم القرآني الذي ورد في الآية : إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ، وفي حديث الرسول ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وليس بالمعنى السياسي الذي يحيل على التصالح مع الواقع وترقيعه.

بالاضـافـة إلى الظاهرة الاستعمارية التي تقاسم أهلها تركة « الرجل المريض »، والتي تركت بعد رحيلها العالم الاسلامي في أقصى حالات التشتت والتمـزق السياسي : فكـان من البـدهي أن تقفـز المشكلة السياسية إلى الـواجهـة وتستغرق جهود حركات التحرير والحركات الدعوية الاسلامية بعدها.

ب ـ لقد اتخذ الصراع الفكري والعقدي في القرن العشرين أبعادا سياسية انقلابية تتذرع بالعنف لتحقيق الاهداف: ان القرن العشرين هو قرن العنف الثـوري فهـو قرن الثـورة الروسية والثورة الصينية، وهو قرن الانقلابات العسكرية في دول العالم الثالث. وإذا كان قامـوس الأحـزاب السياسية التي كانت تؤمن بالعنف الثـوري أسلوبـا للتغيير قد اغتنى بمجموعة من المصطلحات الجديدة، فإن جوهـر الـرؤية السياسية بقي هو هو : أي تغيير الهياكـل السياسية الحاكمة، لأحداث أنواع التغيير الأخرى في الأفكار والعادات والقيم والمثل، وبالقسر والاكراه. ويمكن القول إن هذه الخاصية صفة مميزة للحضـارة الغربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي.. إن الحضارة الغربية حضـــارة إكـــراه، فالقيم والنـماذج الغـربية زرعت في المستعمـرات بالاكراه. والحضارة الغربية بجبروتها المادي قامت على أساس تهديم حضـــارات أخـرى واستنـزاف موارد الشعـوب غير الغـربية المـادية والروحية[٢]. واسرائيل زرعت في الوطن العربي بالاكراه. والشيوعيه دخلت الولايات الاسلامية ودول أوروبا الشرقية قوة وقسرا.

---

٢) انظر كتاب جارودي : حوار الحضارات من صز ٤٥ إلى آخر الفصل الثاني.

هكذا إذن تسود في العالم شريعة الأقوى. ومن البدهي في أجواء القوة هذه أن يحتل التغيير السياسي عند الحركات المعاصرة المكانة الأولى لأنه أقصر الطرق ظاهريا لامتلاك القوة المادية في عالم القوة المادية ؛ وأن تتوسل هذه الحركات بالقوة لاحداث هذا التغيير السياسي. فعالم العنف والارهاب لا يولد إلا العنف والارهاب المضاد.

إن الحركات الاسلامية وهي تعيش في هذا الجو لم تفلت من عدوى العصر، ولذلك فإن أعمالها قد تأثرت في كثير من الأحيان تأثرا متفاوت الخطورة بالنظرة الوضعية للتغيير التي لخصناها في مسألتين اثنتين : الاعلاء من شأن التغيير السياسي، والعجلة في تحقيق ذلك التغيير والتوسل إليه بالعنف.

منطق الاسلام ومنطق العصر

إن منطق الاسلام منطق مخالف تماما. وإن السمة الأساسية للدعوة الاسلامية أنها دعوة ربانية في مصدرها، ربانية في منهجها ؛ كما أن غاية حركتها ممتدة واسعة تنشد العدل في الدنيا بإخراج العباد من عبادة العباد ؛ ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام، وتنشد إخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعة الأخرة كما عبر عن ذلك ربعي بن عامر رضي الله عنه. فقد رفض رسول الله ﷺ أن تغتال دعوته ـ وهي دعوة عقدية تنطلق من تحويل الانسان من الداخل كي يصبح بعد ذلك فاعلا حضاريا ـ في تغيير سياسي تنتهي آثاره بذهاب صاحبه. فقد كان

مما قالت قريش لرسول الله ﷺ : « يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ».

فكان إجابة رسول الله ﷺ إجابة حاسمة قاطعة لرجاء قومه : « ما في ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليهم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم ».

فقال له صلوات الله وسلامه عليه : « ما بهذا بعثت إليكم، وإنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما ارسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم »[٣]. ورفض رسول

٣) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٦.

الله ﷺ بيعة من شرط مبايعته له ونصرته للاسلام بأن يكون الأمر له بعد رسول الله . يقول ابن هشام : « وأنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل يقال له « بيحرة بن فراس » : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ! ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك . قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له أَفَنُهْدِف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ ! لا حاجة لنا بأمرك ! فأبوا عليه »[٤] . وفي بيعة العقبة اشترط الرسول ﷺ لربه ولنفسه ما شاء وحينما سألوه عن المقابل لم يعدهم نصرا ولا دولة ولا تمكينا وإنما وعدهم الجنة . وفي ختام البيعة قال له العباس بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، فقال رسول الله ﷺ « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم »[٥] فعلمهم رسول الله ﷺ أن لكل أجل كتاب ، وأن الغدر ليس من خلق حملة العقيدة ، وهو الذي لاقى من قريش ما لاقاه . فالسيف يسل في موقف شريف وقد تمايز الصفان والمعسكران ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيى عن بينة[٦] . والمؤمن يقاتل في سبيل الله استجابة لأمر الله ، ويكف يده استجابة لأمر الله فالذي أمر بكف اليد هو الذي أذن في القتال للمؤمنين . وهو المؤمن الأول أن يكون طائعا لله مستسلما لأمره في السلم والحرب ، لا أن ينتصر لذاته .

٤) نفسه ص ١٠٠.

٥) نفسه ص ١٠٦.

واستوعب صحابة رسول الله ﷺ هذه الدروس فلم يولد الغدر في نفوسهم غدرا مضادا فهذا خبيب بن عدي - أحد شهداء يوم الرجيع - يأبى أن يرهب طفلا باتخاذه رهينة وقد سنحت له فرصة انقاذ حياته وحقن دمه الذي اعتزم المشركون على إراقته. فعن ماوية مولاة حجير ابن أبي إهاب - وكانت قد أسلمت - قالت: كان خبيب عندي حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوما وإن في يده لقطفا من عنب مثل رأس الرجل، يأكل منه، وما أعلم في الأرض عنبا يؤكل. قال حين حضره القتل: ابعثي إلى بحديدة أتطهر بها للقتل. فأعطيت غلاما من الحي الموسى فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت. قالت: فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه. فقلت: ماذا صنعت! أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام، فيكون رجلا برجل! فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إلي؟! ثم خلى سبيله »[7].

إن الأصل في هذه الدعوة أنها تتوجه للانسان لتخلق منه بالعقيدة إنسانا جديدا فتحرر طاقاته وتدفعها نحو عمارة الأرض وإصلاحها، فتندفع هذه الطاقات بناء لقيم الاسلام وأنظمته في الأرض. إنها تتوجه إلى النفس الانسانية فتغيرها من أعماقها وتطلقها من عقالاتها، فتنشأ بذلك عندها فسحة في القيم والموازين، ورحابة

٦) للتوسع في هذه النقطة راجع كتاب جودت سعيد: مذهب ابن آدام الأول أو مشكلة العنف في العمل الاسلامي.

٧) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٧٦.

في المدارك والتصورات. وهنا نفهم أصالة التغيير الذي يحدثه الاسلام في مجرى التاريخ، تلك الأصالة التي تتجلى في استمرار إشعاع العطاء الاسلامي: فهو عطاء مستمر لا ينضب. ولا يزال ذكر رسول الله ﷺ في الناس لم ينقطع على طول التاريخ الاسلامي. ولم تمر لحظة من لحظات الزمن خلت فيها الأرض من ترديد كلمة التوحيد. إن هذا الاشعاع المستمر بمثل هذا العمق والاتساع ما كان ليحدث لو أن طبيعة التغيير الذي أحدثه الرسول بالاسلام في حياة الأمة كان ناتجا عن مجرد انقلاب سياسي. إن التغيير الذي تحمله الدعوة الاسلامية من طبيعة حضارية؟ فما قصة هذا التغيير؟ وما قصة التراجع الحضاري الاسلامي؟ نبدأ أولا بتحديد مفهوم الحضارة.

مفهوم الحضارة: يقصد بالحضارة مجمل الانتاج المادي والروحي لأمة ما، والثقافة جزء من الحضارة. إنها تمثل الجانب العقلي أو الفكري من إنتاج الانسان في مجال الفلسفة والآداب والحقوق واللغة وغيرها... فالحضارة تشمل إلى جانب الثقافة الانتاج المادي. وهكذا فإذا كانت التقنية تمثل جسم الحضارة فإن الثقافة تمثل روحها[٨]. ويشمل الانتاج المادي المؤسسات الاجتماعية والسياسية وأساليب العمران والعيش وعادات المأكل والمشرب واللباس... الخ. وتنطلق كل حضارة من عقيدة أي من رؤية خاصة للعالم، سواء كانت هذه الرؤية تستند إلى الكتب السماوية، أو إلى اجتهادات الفكر الانساني. إن

---

٨) المعجم الفلسفي Larousse philosophique - مادة: Civilisation.

الحضـارة هي حصيلة تحرك الانسان بالعقيدة لتغيير الواقع الطبيعي والاجتماعي وبهذا المعنى نتحدث عن الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية، والحضارة المادية الغربية. ومن هنا كانت أخطر لحظة من لحظات تطور الحضارة هي لحظة نشأة روحها، لأنها هي اللحظة التي تتحكم في اللحظات الموالية وتحدد نوعيتها وتصبغها بصبغتها. إن لحظة تشكل روح الحضارة الغربية المعاصرة قد بدأت مع عصر النهضة التي تسجل بداية الصراع مع الفكر الكنسي، والتي تسجل أيضا « ميلاد ايديولوجية جديدة تبرر الممارسة وتحول التصور السابق لعلاقة الانسان بالطبيعة، وعلاقة الانسان بالانسان وعلاقة الانسان بالله، علاقة سيطرة على الطبيعة تقنيا بكل ما تنطوي عليه من إيجاب، ولكن أيضا من سلب. وهذه السيطرة تتجلى في الواقع وبالضرورة في حبس المعرفة في حدود جانبها التصوري. علاقة بالانسان، فردية المنزع بصورة أساسية. ومنها سيولد رجل المشروع، بالمعنى الأفضل، والمعنى الأسوأ لهذه الكلمة. مع عصر النهضة ستتولد إرادة الربح والسيطرة، إرادة (الغازي) الذي لا يتردد في إقتحام العالم المعروف، ولا في تدمير القارات والحضارات. . بصورة اخرى مولد الرأسمالية، أي المجتمع الذي خلق الانسان ذا البعد الواحد : ذلك الذي ينتظر من نمو العلوم والتقنيات نموا لا نهائيا يروي غلة إرادته في السيطرة والربح، ومولد الاستعمار أي المجتمع الذي يزعم أنه يتخذ هذا الانسان التقني مقياس الاشياء كلها، ومركز المبادهة التاريخية الوحيدة، ومبدع القيمة الوحيد، ومن ثم، من ينكر أو يهدم الثقافات

اللاغربية وكل الطرائق الأخرى التي تتناول بالفكر والحياة علاقة الانسان بالطبيعة وبالبشر وبالالهي »[٩].

ميلاد الحضارة الاسلامية : و بالمقابل فإن أهم لحظة من لحظات تطور الحضارة الاسلامية هي لحظة نشأة روحها أي في حياة رسول الله ﷺ. إن لحظة « الثورة الروحية » التي أحدثها محمد ﷺ هي التي اعطت للحضارة الاسلامية طاقة الدفع فيما بعد. في هذه اللحظة وليس في غيرها تأسست الحضارة الاسلامية في بغداد ومراكش والقيروان وقرطبة

ففي هذه اللحظة ولد الانسان المسلم مبدع تلك الحضارة، وصيغ عقله وتصوره، واختصارا صيغت رؤيته للعالم والحياة، تلك الرؤية التي هي أساس الحضارة الاسلامية. حقيقة إن المنحنى الروحي للأمة الاسلامية قد عرف بعض الفتور بعد الصدر الأول ولكنه فتور نسبي أي أن ذلك التوهج الروحي قد نقص بالمقارنة مع كماله على عهد رسول الله ﷺ. لقد حدثت ثلمة في الحياة الاسلامية حينما استبدلت الخلافة الراشدة بالملك العضوض ولكنها ثلمة لم تطفىء التوهج الحضاري إذا استمر سيره في منحنى تصاعدي مستمر.

وقد تلتبس في ذهن البعض حقيقه التطور الحضاري في التاريخ الاسلامي فيرى أفضلية للمراحل اللاحقة من تطور الأمة الاسلامية (العهد العباسي مثلا) على المراحل السابقة (عصر النبوة والخلافة

٩) رجاء غارودي : حوار الحضارات ٢٧ - ٢٨ - ٣٩ بتصرف.

الـراشدة). إن الخطأ في هذا الحكم يكمن في اعتماد مقياس مادي ظاهري للحضارة. كما أنه يغفل أهمية لحظة الثورة الروحية باعتبارها الجـانب المؤسس للحضـارة المادية، فضلا عن أن التراكم المادي في الحضـارة هو نتيجـة طبيعية لعـامل الزمن. فمن البدهي أن يكون التراكم الحاصل في اللحظة الزمنية اللاحقة أكبر من التراكم الحاصل في اللحظة الزمنية السابقة. إن قيمة لحظة الثورة الروحية تكمن في طابعها الكيفي أي في تعبئة الطاقات الانسانية بترشيد النشاط العقلي عن طريق تحريره من الخرافة والعقائد الزائفة وبناء الأسس التصورية لمناهج الفكر والعمل الرشيد واختصارا بتهيئة أدوات العمل الضرورية للبناء الحضاري. وهذا أكبر عطاء قدمته التجربة النبوية ليس للأمة الاسلامية فحسب بل للبشرية جمعاء.

انحسار سياسي وامتداد حضاري

إن فهم علاقة لحظة الثورة الروحية باعتبارها اللحظة المؤسسة للحضـارة ـ بالعـطاء الحضـاري ذاته واستمراريته تجعلنا ندرك لماذا استمـر العـطاء الحضـاري للأمة الاسلامية حتى في فترات ضعفها وتفككهـا السياسي، ونتأكد من أن هذا الدين لم يأت لتأسيس دولة فحسب بل إنـه دين جاء لبنـاء الانسـان، فهـو بهذا المعنى دين حضـاري. إن استمرار العطاء الحضاري لهذا الدين وبلوغه درجة كبرى من التوهج في حقب الملك العضوض لا في الخلافة التي على منهج النبوة يدل على الفرق الكبير بين نتائج الانقلاب السياسي ونتائج

التغيير الحضـاري. إن الخـلافـة الراشدة ليست إلا عروة من عرى الاسلام، وربما كانت من أعلى مراتب الاحسان في هذا الدين، بدليل أنـه لم يطقهـا إلا قلة من خيار هذه الأمة، فكانت أول العرى التي نقضت في الاسلام. وتبقى أشكال الحكم التي عرفها الاسلام أشكالا اسلامية بقدر ما تمثلت من مبادىء الاسلام، بينما بقيت عرى الاسلام الأخرى قائمة ومازالت في تراجع إلى أن أقصي الاسلام من المجتمع بدخول الاستعمار الغربي إلى البلاد الاسلامية.

وقـد أتى على الأمـة الاسـلامية زمـان تفككت فيه الـدولـة الاسـلامية إلى إمـارات ودويلات، فانهزمت الجيوش الاسـلامية في القرن السادس أمام الزحف الصليبي الذي استطاع أن يبسط سلطانه على القدس مدة تقارب قرنا من الزمن. غير أن الهزيمة الاسلامية أمام الغزو الصليبي لم تكن هزيمة حضارية، إذ سرعان ما خرج من أبناء الأمة الاسلامية من يوحد صفوفها ويصلح ذات بينها ليطرد الغازي ولتبقى أرض فلسـطين أرضا إسلامية. ذلك أن الروح الاسلامية لم تنهزم أمام الغزو الصليبي وما شكل النموذج الحضاري المسيحي مثلا أعلى بالنسبة للمسلمين.

ومـع بداية القـرن السـابع أصبحت سلطة الخلافة العباسية خارج العراق سلطة صورية. وانشغلت الدويلات والامارات بالتوسع بعضهـا على حساب البعض. إن هذه الحالة من التفكك السياسي جعلت حكـام المسلمـين غير قادرين على التفكـير في إقـامـة حلف

إسلامي يصد التيار المغولي الجارف قبل أن يستفحل أمره . فنزل التتار كالاعصار المدمر وانسابت جيوش جنكيزخان وهولاكو انسياب الثلوج من قمم الجبال واكتسحت الحواضر الاسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة ولم يتركوا من وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية . وفي مدينة بخارى التي اشتهرت برجال العلم والورع اتخذ المغول المسجد اصطبلا لخيولهم ومزقوا المصاحف واتخذوا منها وطاء لدوابهم (١٠) . ويصف ابن كثير وصفا مؤلما ما آل إليه حال بغداد بعد الاعصار المغولي قائلا : « ولما انقضى الأمر المقدر . وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد ، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون » (١١) .

حقيقة إن الغزو الصليبي والتتري قد تزامن مع بداية دخول تاريخ الامة الاسلامية في اتجاه العد العكسي للانحطاط الحضاري ، إذ كسدت الحياة العلمية وأقفل باب الاجتهاد في الاصول والفروع وسيطرت نزعة التقليد والجمود الفكري ، غير أنه كان لا يزال بالامة

---

١٠) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٤ ص ١٣٤ ط ١ - مكتبة النهضة المصرية .

١١) ابن كثير : البداية والنهاية عند ذكر حوادث سنة ٦٥٦ ج ١٣ .

من الرصيد الحضاري والروحي ما يجعلها تستيقظ وتستجيب عند كل نداء. فالهـزيمـة العسكرية لم تقابلها هزيمة حضارية أمام التتر بل استمرت العقيدة الاسلامية تقاتل وتقوم بالغزو المضاد في نفوس من دمـروا البلاد وأبادوا العباد. يقول سيرتوماس أرنولد: « ولكن على الرغم من هذه المصاعب، أذعن المغول والقبائل المتبربرة ودانت بدين هذه الشعـوب الاسلامية التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم. ولابد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمـبراطورية المغول وعرضها مجاهدين في طي الخفاء لجذب هؤلاء الكفـار إلى حظيرة الاسـلام »[(١٢)]. ويقـول الأسقف دي مسنيل: « وهكـذا نرى الاسـلام الـذي كان قد أشرفت قوته على الزوال يسترد مكانته ويستعيد قوته، ويصبح أشد خطرا من ذي قبل »[(١٣)].

لم تنهـر الـروح الحضارية الاسلامية مع انهيار بغداد ت وإنما أصابتها إغفاءة، فقد ظلت القيم الحضارية الاسلامية تشكلا دائما مثلا أعلى للمسلمين. وسرعان ما قيض الله للأمة من يجمع شتاتها ويوقظ في الأمة روح الجهاد. فقام الملك المظفر سيف الدين قطز بعد ان استحث همته علماء صادقون من أمثال العز بن عبد السلام. فلما استشار قطز القضاة والفقهاء والأعيان استقر رأيه على مشورة العز بن

---

١٢) د. حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام ص ١٥٣.

١٣) مجلة الأمة القطرية العدد ـ مقال: قطز قاهر التتار في معركة عين جالوت ص ١٢ـ ص ١٣ - ص ١٤ - ص ١٦.

عبد السلام التي جاء فيها : « إنه إذا طرق العدو بلاد الاسلام، وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية من تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا ما لكم من الحوائض المذهبية والآلات النفيسة ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة. وأما ما أخذ من العامة، مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا يجوز».

فحشد قطز القوات وجمع الأمراء وكلمهم بالرحيل فأبوا كلهم وامتنعوا عن الرحيل فنادى قائلا : « يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين». ونادى عند احتدام الجهاد قائلا : « وا إسلاماه ! يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار» فاستجاب الله دعاءه وهزم التتار بإذن الله فكان انتصار المسلمين في عين جالوت على التتار انتصار عقيدة لا مراء(١٣).

مفارقة تاريخية

مع قيام الدولة العثمانية كدولة إسلامية قوية في العصر تظهر إحدى مفارقات التاريخ الاسلامي. فقد انتصرت الأمة حضاريا حيث تعثرت سياسيا وعسكريا، وتعثرت حضاريا حيث نجحت

(١٣) المصدر نفسه.

سياسيا وعسكريا. فالآلة السياسية العسكرية الاسلامية ممثلة في الدولة العثمانية كانت آلة قوية. فقد استطاعت أن توحد جزءا كبيرا من البلاد الاسلامية بل استمرت تشكل مصدر رعب بالنسبة لدول أوربا. كما استطاعت العسكرتارية التركية أن تدخل بالبارود والنار شرق أوروبا، ولكن فرق كبير بين دخول الاسلام إلى الشرق الاوسط أو الهند مثلا وبين دخوله على يد الاتراك إلى شرق أوروبا »[١٤] فالقوة السياسية والعسكرية للدولة العثمانية لم تكن تستند الى رصيد حضاري. فقد خبا توهج الحضارة الاسلامية بفتور الروح الاسلامية وتعطلت حركة العقل المسلم بإقفال باب الاجتهاد وسيطرة الخرافة والتواكل والسلبية، لقد جف وذبل غصن الحضارة الاسلامية كما يقول خالص جلبي » وبقيت الخلافة محافظة على شكلها بعد موتها كما تروي لنا قصة النبي سليمان عليه السلام فبقي شكله كما هو لم يتغير والجن تعمل بين يديه وهي تظن أنه حي يرزق ؟!.

إن كمال أتاتورك لم يفعل أكثر من دفن تلك الجثة الميتة والمسماة بالخلافة ـ بكل أسف ـ والتي كانت ترعب جند أوروبا في ذلك الحين، وكانوا يسمونها الرجل المريض، ومات المريض بعد طول سقم واعتلال. ولم تفلح حقن الانعاش وحركات تمسيد القلب التي قام بها السلطان عبد الحميد حين أراد إعادة نبض القلب، وضخ الدم حين أطلق نداءاته المعروفة : « يا مسلمي العالم اتحدوا » لأنها جاءت متأخرة.

١٤) خالص جلبي : في النقد الذاتي للحركة الاسلامية ص ١٢٢.

وهو إن أراد بذلك تقليد كارل ماركس حينما أطلق : « يا عمال العالم اتحدوا » فإن رصيد هذه الكلمة من الواقع كان ملائما للاستجابة في ثورة شيوعية، في حين كان العالم الاسلامي على أحسن الاحوال يفرك عينيه من النوم الطويل بعد أن استيقظ على الصفعة الاستعمارية »[١٥].

الاستعمار والقابلية للاستعمار

لم تكن الظاهرة الاستعمارية إذن جزافا وعبثا، بل كانت نتيجة طبيعية لفراغ الأمة حضاريا. إنها نتيجة لنشوء القابلية للاستعمار كما يؤكد ذلك مالك بن نبي. وفي هذا الصدد يميز مالك بن نبي رحمه الله بين الاحتلال والاستعمار. « ففي الحالة الأولى يوجد تركيب سابق للانسان والتراب، والوقت وهو يستتبع فردا غير قابل للاستعمار. أما في الحالة الاخرى فإن جميع الظروف الاجتماعية التي تحوط الفرد تدل على قابليته للاستعمار. في هذه الحالة يصبح الاحتلال الاجنبي استعمارا قدرا محتوما »[١٦].

إن هذا الذي يقرره مالك بن نبي هو الذي سماه رسول الله ﷺ في الحديث مرض الغثائية ومن مظاهر الكثرة الظاهرة والانتفاخ السرطاني والفراغ الروحي. قال ﷺ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا

١٥) نفسه ص ١١٥.

١٦) نقلا عن كتاب النقد الذاتي ص ١٠٨.

رسول الله . قال بل إنكم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا وما الوهن يا رسول الله . قال حب الدنيا وكراهية الموت »(١٧)

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتعرض فيها البلاد الاسلامية للاحتلال . غير أن الظاهرة الاستعمارية الحديثة قد تزامنت هذه المرة بانزلاق الأمة في اتجاه العد العكسي لمنحناها الحضاري ، بينما تزامنت في الضفة الأخرى مع الصعود الحضاري الغربي .

لقد انهارت هذه المقاومة الحضارية في نفوس المسلمين فكان من نتائج التدخل الاستعماري إلغاء الخلافة الاسلامية في المشرق واقتسام تركة « الرجل المريض » وفرض النموذج العلماني في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، إما بالدخل السافر المباشر أو عبر وكلاء الغرب من أبناء المنطقة الذين سهر على تربيتهم وتكوينهم . لم تكن الخلافة العثمانية خلافة نموذجية من وجهة نظر إسلامية ، فقد واكبت خمود التوهج الحضاري الاسلامي كما ألمحنا ، غير أن المشروعية العليا بقيت فيها للاسلام وقيمه رغم ذلك . كما أنها قد بقيت إطارا يرمز للاسلام ويمثل قوته ويرهب أعداءه ويرفع شعاره . وفي المغرب - الذي ظل كيانا إسلاميا قائما بذاته ومستقلا عن الخلافة العثمانية - بقيت المشروعية العليا للاسلام دائما في المجتمع ، وبقيت الشريعة الاسلامية إلا مع دخول الاستعمار . لقد فرض التدخل الاستعماري على الادارة المغربية

---

(١٧) رواه أحمد وأبو داوود عن ثوبان .

تجاوزات شرعية في مجال التعـامل الاقتصادي، فكان توقيف العمل بالزكاة نتيجة للشروط التي فرضها الاستعمار على المغرب بعد انهزامه في حرب تطوان سنة ١٨٦٠. « فقد أرغم المغرب في إطار هذه الحملة على قبول مشروع إصلاح الضرائب بتغيير الزكوات والأعشار وتوقف تداولها، أي طمس ركن من أركان الاسلام حتى يتم تجاوزه وتوقيف العمـل به. وهي وسيلة من أخـطر الـوسائل الاستعمارية الخبيثة في تهميش العمـل بالشريعـة تمهيدا لاهمالها ونسيانها ثم تجاوزها. وقد مهدوا لذلك بإفقار المغرب والقضاء عليه اقتصاديا عن طريق الذعائر الحربية والقروض الأوروبية وسرقة العملة (النقود) المغربية وتهريبها. ويظهر أن الدولة المغربية تحت وطأة الأزمة الاقتصادية التي أوقعتها فيها الاستعـمار لم تنتبـه إلى مبـادرة مشروع « الـترتيب » وتـوقيف العمل بالزكوات والأعشار والضرائب الشرعية، وإلا فقد كانت غيرة أعضائها على الدين قوية »[١٨].

إن هذا التدخل الاستعماري المباشر لم يطل الأنظمة القانونية والاقتصـادية فحسب، بل تجاوزهـا إلى الافسـاد الأخلاقي بإشاعة الخمـور والسجـائر مجانا بين المغاربة حتى يتعودوا عليها وينقلبوا في أخـلاقهم إلى أخـلاق الغزاة. وهو الشيء الذي حذر منه السلطان الحسن الأول في رسائله إلى عماله بالمدن الساحلية[١٨].

---

١٨) ذ. أحمد العماري. مقال : التغيير في إشكالية الاصلاح / التجديد بالمغرب خلال القرن ١٣هـ/١٩م مجلة الهدى المغربية ـ عدد ١٠.

١٨) المصدر نفسه.

استقلال سياسي وانهزام حضاري

غير أنه لا ينبغي أن نغفل الوجه الآخر للتدخل الاستعماري. فقد كان هذا التدخل إيذانا ببداية دورة حضارية جديدة تمثلت أولا في الحركات الوطنية التي استلهمت الاسلام لإذكاء روح الجهاد، وفي الحركات الاسلامية فيما بعد التي أكدت على التعامل مع الاسلام ليس فحسب باعتباره روحا للمقاومة وإنما أيضا باعتباره اختيارا عقديا وفكريا واجتماعيا وسياسيا، وباختصار باعتباره بديلا حضاريا. ورغم ذلك كله فإن هذه الدورة الحضارية التي تجسدت في تلك الحركات لم تكن إلا الوجه الايجابي للاصطدام مع الاستعمار. فإذا كان هذا الاصطدام قد أيقظ الروح الاسلامية وبعدها العقل الاسلامي في مرحلة لاحقة، فإنه لم يمر بدون ضحايا من أبناء هذه الامة. إن الاصطدام بين الامة الاسلامية والاستعمار لم يكن اصطداما عسكريا فحسب بل كان اصطداما ثقافيا وحضاريا، كما أنه تزامن هذه المرة مع الانحدار الحضاري للأمة بينما كان يتزامن تاريخيا مع لحظات كان رصيد الامة الحضاري لايزال من القوة بحيث يحول دونها ودون الانهزام الداخلي أمام المثل الأعلى الأجنبي.

إن الهزيمة الحالية تتميز عن الهزائم الظرفية التي كانت تتعرض لها الأمة الاسلامية في تاريخها بأنها هزيمة داخلية أصابت هذه المرة العقل والوجدان الاسلامي. فلأول مرة في التاريخ الاسلامي ينهزم العقل والنفس الاسلاميين أمام القيم الحضارية الغربية بشقيها

الليبرالي والشيوعي. وهكذا فإذا كانت الحركات الوطنية قد نجحت في إحراز الاستقلال السياسي فإنها خسرت كثيرا في معركتها الحضارية ضد الغرب فنشأ فينا وكلاء للقيم الحضارية الغربية، هؤلاء الوكلاء الذين يمكن تصنيفهم إلى نموذجين :

- **النموذج الليبرالي** : لقد تلقى هذا النموذج تعليمه في المعاهد الأوروبية وتشرب القيم الغربية. وفي غياب تعليم إسلامي أصيل ومعاصر، يستطيع أن يقدم الاسلام بعيدا عن رواسب عصور الانحطاط والجمود والتخلف، ويواكب تطورات العصر، ترسخت في ذهن هذا النموذج صورة مشوهة عن الاسلام ولغته وثقافته وحضارته. فقد تربى هذا النموذج في المدارس التي أنشأها الاستعمار (في المغرب مثلا : المدارس الفرنسية الأوروبية أو ما كان يسمى بالمدارس الاسلامية التي لم يكن لها من الاسلام إلا الاسم). قبل أن تلتحق بالجمعات الأوروبية. هذه النخبة ستكون في المستقبل محظوظة في الهرم الاجتماعي والسياسي عند الاستقلال بحكم تكوينها اللائق والمعاصر، الشيء الذي لم يتوفر لدى النموذج العربي الاسلامي والذي اضطر بحكم المقاطعة للتعليم الاستعماري أن يتعلم في المدارس الحرة التي أنشأتها المقاومة وأن يتابع دراسته الجامعية - إذا كان محظوظا - في الجامعات العتيقة أو جامعات الشرق الاسلامية. ومن الانصاف أن نقول إن كثيرا ممن يمثلون هذا النموذج لم يكونوا يكنون عداء للاسلام غير أنهم لم يكونوا يحملون أي صورة حول إمكانية استلهام حلول اجتماعية واقتصادية وسياسية من الأصول العامة والتوجيهات القطعية

للدين، فأسقطوا على الدين الاسلامي النظرة العلمانية الأوروبية وحصروه في علاقة محدودة بين العبد وربه تمارس بعيدا عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أي تُمارس بين جدران المساجد والمعابد.

- النموذج الماركسي: إذا كان النموذج الليبرالي أحد مظاهر الانهزام الحضاري أمام الغرب فإن الأمر صحيح أيضا بالنسبة للنموذج الماركسي. إن الفلسفة الماركسية ليست سوى إحدى مظاهر التطور الفكري والحضاري للمجتمع الغربي(١٩). فالفلسفة الماركسية وإن كانت قد وجدت تطبيقاتها في دول أوروبا الشرقية وفي الصين، إلا أنها إبداع غربي إذ أنها قد شهدت النور بين ألمانيا وإنجلترا.

لم تتطور الفكرة الاشتراكية والشيوعية الملحدة تطورا ذاتيا في المجتمعات العربية الاسلامية. وما كان ظهور التفسير المادي للتاريخ بخلفياته الفلسفية المادية نتيجة للصراعات الطبقية أو لاتساع قاعدة الطبقة العاملة، ولا تتويجا للسياق الفلسفي والفكري العام في العالم الاسلامي كما كان الشأن في الغرب: فقد كانت الفلسفة الماركسية في

---

١٩) يرى كارودي أن شعار الحضارة الغربية قد ظهر مع كريستوفر مارلو منذ القرن السادس عشر الذي دعا إلى تأليه الانسان حينما يقول: بدماغك القوي يا (فاوست) صر إلها... سيد العناصر كافة وربها... إن الحضارة الغربية حسب كارودي حضارة فاوستية والماركسية بما أنها ولدت في هذه الرقعة الغربية فهي فاوستية في الجوهر. يقول (و. ليبنخت): إن (فاوست) هو الأثر الشاعري الذي كان (ماركس) يفضله. انظر حوار الحضارات ص ٤٠.

الغرب تتويجا لفلسفة الأنوار ومادية القرن الثامن عشر، ولفلسفة التاريخ التي بشرت بفكرة التطور الغائي نحو تحقيق المطلق، سواء كان هذا المطلق فكرا كما هو الشأن في الفلسفة المثالية الألمانية مع هيكل، أو كان هو المطلق الاجتماعي الذي سيتحقق في المجتمع الاشتراكي الشيوعي كما سنجد ذلك في التحوير الذي ستدخله الفلسفة المادية الألمانية مع ماركس على فكرة المطلق عند هيكل.

فقد زرعت الفكرة الشيوعية في العالم العربي زرعا، إذ من الثابت تاريخيا أن الفكرة الشيوعية قد حملت إلى العالم العربي عبر الاقليات الدينية وعبر اليهود بالخصوص المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين. ومن المعروف أن منظمة الكومنترن ـ وهي منظمة مركزية في الاتحاد السوفياتي أنشأت أساسا لنشر الشيوعة خارج أسوار روسيا ـ كانت وراء إنشاء مجموعة من الاحزاب الشيوعية في العالم العربي، ونفس الشيء بالنسبة للأحزاب الشيوعية في المغرب العربي التي جاءت مع المستوطنين الأجانب وظلت تابعا للحزب الشيوعي الفرنسي[٢٠].

لقد كان ظهور الفكرة الماركسية أيضا في العالم الاسلامي نتيجة صياغة منهجية لعقول الشباب المهاجر إلى أوروبا لتلقي تعليمه العالي أي بواسطة الأنشطة المكثفة للحزب الشيوعي الفرنسي بعد الحرب العالمية الثانية الذي كان يمثل آنذاك قوة كبرى في فرنسا ؛ إذ كان ينظر إليه كما يقول عبد الله إبراهيم وكأنه يمثل شباب الشعب الفرنسي.

٢٠) انظر كتاب العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ـ الاستاذ مصطفى الحيا.

وقد كانت الماركسية تعبىء بواسطة نشاط الحزب الشيوعي الشباب الوافد عن طريق الرحلات التي كانت تنظم بمساعدة الحزب أو بعض تنظيماته لبعض دول أوروبا الشرقية. وقد وجد الطلبة المغاربة - كما يقول عبد الله إبراهيم - جوا مثيرا في فرنسا وكانوا دائما متجهين إتجاها يساريا، وهو ما سينعكس أثره على الحركة الوطنية التي ستصبح - كما يضيف عبد الله إبراهيم - منقسمة بين الشباب الذي يعيش في الخارج والذي كان على صلة بالحركات اليسارية وبالأخص الحركة الاشتراكية التروتسكية والمثقفين التقليديين في الغرب [٢١].

تلك كانت قصة التراجع الاسلامي : فإلغاء الشريعة الاسلامية لم يأت نتيجة قرار سياسي بل نتيجة لتراجع حضاري طويل أدى إلى أن تنشأ في الأمة القابلة للاستعمار، الذي أجهز على آخر مظاهر الحياة الاسلامية. وهو نتيجة هزيمتنا أمام الحضارة الغربية وانتصار قيمها ونماذجها في نفوس طائفة من أبناء أمتنا الذين أصبحوا يقومون بدور الوكالة الحضارية عن الغرب بعد الاستقلالات السياسية.

* * *

هكذا نخلص إلى أن الأخطار التي تهدد الحل الاسلامي ليست أخطارا سياسية فحسب، وقد لا تكون مسألة الحكم الاسلامي هي التحدي الحقيقي الذي يواجه الدعوة الاسلامية، فانحصار النموذج

21) انظر مجلة الكرمل عدد ١١ - حوار الثقافة الوطنية والعمل الثقافي.

الاسلامي للحكم (الخلافة الراشدة على منهج النبوة) لم يحل تاريخيا بين الاسلام وبين القيام بدوره الحضاري، وتفكك الهياكل السياسية الاسلامية لم يتتبعه ضرورة تراجع القيم الاسلامية، إن الأخطار التي تهدد الحل الاسلامي تتمثل في انتصار القيم الحضارية الغربية في فئة كبيرة من أبناء أمتنا، وأخطر من ذلك إنتصار قيم للتغيير تجد أصلها في الحضارة الغربية في نفوس كثير من أبناء الدعوة الاسلامية، ومنها : الاعلاء من شأن التغيير السياسي لاحداث أنواع التغيير الأخرى، والتوسل إلى ذلك التغيير بالعنف الذي هو أحد أمراض العصر.

وقد تكون نقطة البداية بالنسبة للدعوات الاسلامية إعادة ترتيب نظرتها لأساليب التغيير وفقا لقيم الاسلام. ومن حسن حظ المسلمين أن هذا الدين رباني في أصله رباني في منهجه، ربانية قيمة في التغيير فجاءت السنن الشرعية متوافقة مع السنن الكونية والاجتماعية والحضارية، فقد نبهت سنن الله المقروءة إلى سنن الله المنظورة فلم نوكل لنظرنا العقلي المجرد بل وجهت آيات القرآن وأحاديث السنة إلى سنن التراجع والبناء الحضاريين. إن الحديث النبوي الشريف يخبرنا أن هذا الدين الذي أمرنا باقامته عرى متعددة، وأن أول عرى الاسلام تنقض هي عروة الحكم وآخرها عروة الصلاة. فهذا الحديث يشير إلى أن لبنات البناء الاسلامي يقوم بعضها على بعض لا تنقض أسفلها إلا إذا نقضت التي هي أعلى منها، هذا فيما يتعلق بحركة تراجع الاسلام وإدباره. وهو يشير من طرف خفي أيضا إلى أن محاولة

إقامة البناء الاسلامي والرجوع به إلى الحياة لابد أن تراعي سنن البناء بالبداية بأسفله والاهتمام بعروة الصلاة وما جاورها من العرى وهي مئات، كل في دائرة معينة مما ستكون نتيجته النهائية الرجوع بالقاعدة الجماهيرية العريضة إلى الاسلام. أما لو توجهت جهود العاملين في إطار الدعوة الاسلامية إلى إصلاح العروة الأعلى أي الحكم لوجدوا أنفسهم أمام خندق كبير يحول دون ذلك والمتمثل في عدم وجود قاعدة شعبية تستند الحل الاسلامي، وقاعدة من الاطارات والكفاءات العلمية القادرة على صياغة البديل الاسلامي في صورة معاصرة والخروج به من حيز التعميمات النظرية إلى حيز التطبيق الفعلي[٢٢].

---

٢٢) انظر مقال : حول العمل الاسلامي - مراجعة وتقويم في ركن أين الخلل. مجلة الأمة القطرية عدد : ٤٩.



الفصل الثالث
العمل الاسلامي بين الشمولية المنهجية والواقعية الحركية

سنة التدرج سنة كونية وسنة شرعية أيضا. فالكائنات كلها تتدرج في خلقها عبر مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها. والقرآن نزل على مكث يتوافق مع تدرج التشريع للكائن البشري. تقول عائشة رضي الله عنها : « إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الاسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر ولاتزنوا، لقالوا : لا ندع الخمر ولا الزنى أبدا »[1]. فالتشريع الاسلامي تدرج في معالجته للواقع البشري قبل أن ينتهي إلى صورته المتكاملة. وفي دعوته لتطبيق الحدود أمر بدرئها حين تحيط بها الشبهة بحيث يخرج المتأمل للمنهج الاسلامي أن سمته الاساسية هي الواقعية الحركية كما يقول سيد قطب رحمه الله.

وإذا كان الأمر صحيحا بالنسبة لنزول القرآن أول مرة وبناء أول حياة إسلامية فإن الأمر صحيح أيضا عند أي محاولة لاعادة استئناف الحياة الاسلامية. لقد كان ﷺ رسولا مبلغا عن الله، فموضع اتباعه

---

١) رواه البخاري.

والاقتداء به هو فيما بلغ عن ربه، وفي طريقة تبليغه عن الله عز وجل أيضا أي منهج الدعوة الذي كان يضع أسسه وهو يتحرك بالاسلام.

وحينما نرجع إلى سنة الرسول ﷺ سنجد أنه قد راعى سنة التدرج في تغييره للواقع الذي كان يحيط به دون أن يطعن ذلك في شمولية المنهج الاسلامي. فشمولية المنهج الاسلامي أمر ينبغي أن لا يتطرق إليه شك، فهي من المعلومات من الدين بالضرورة، ولكن هذا شيء والحكمة في النزول به إلى الواقع شيء آخر.

إن غياب سنة التدرج عن أعين بعض الدعاة وبالتالي افتقاد ميزان الأولويات جعل الدعوة الاسلامية في كثير من الأحيان تتحرك في مساحات عريضة أكبر من طاقاتها وتقاوم على جبهات متعددة أوسع مما تستوعبه قدراتها. « فقد أرادت طرد المستعمرين ومقاومة الحكام العلمانيين ومواجهة الفساد الاجتماعي والظلم الاقتصادي وتطبق شرائع الاسلام بكل أبعادها وفي الوقت نفسه، في مجتمع ابتعد فيه كل شيء عن الاسلام فردا وأسرة وجماعة. فكانت النتيجة أن استدرج العمل الاسلامي أحيانا إلى معارك لم يكن معدا لها، فضرب ضربات قوية معيقة مزقته وزعزعت كيانه وحيل بينه وبين بناء المجتمع الاسلامي بالقوة والعنف ثم بالتخطيط المعاكس من موقع التسلط المحلي والتعاون الأممي، بحيث كانت النتيجة تربية أجيال في ظل العلمانية والأفكار المادية أي تحول في هذه الحالة سلبيا دون قصد إلى تكريس حياة البعد عن الاسلام من حيث أراد أن يصوغ المسلمين صياغة جديدة في ضوء عقيدته وشريعته.

إن الرأي الذي يقول بأن علينا ألا نسكت عن أية مخالفة رأي لا يستند إلى فهم دقيق لأصول الشريعة ومقاصدها في الحياة »[٢].

فالقواعد الشرعية تقرر أن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح وأنه لا يجوز دفع مفسدة بجلب مفسدة أعظم، أو جلب منفعة بتفويت منفعة أعظم منها. كما أنها تقرر جواز بل وجوب السكوت عن المنكر مخافة وقوع منكر أكبر منه احتمالا لأهون الشرين وارتكابا لأخف الضررين. وقد أفاض الامام ابن تيمية في بيان هذه القاعدة. ونحن نجتزيء من كلامه بعض الفقرات. يقول رحمه الله : « فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به ؛ ولهذا قيل : ليكن أمرك بالمعروف معروفا ونهيك عن المنكر غير منكر. وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجعة على المفسدة ؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح. وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصلحات وذم المفسدين في غير موضع. فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم ؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم). والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما

٢) انظر مقال محسن عبد الحميد - في ركن أين الخلل مجلة الأمة القطرية عدد (٢).

قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال. وذلك يكون تارة بالقلب وتارة باللسان، وتارة باليد. فإما القلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال ﷺ: « وذلك أدنى - أو - أضعف الايمان » وقال: « ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » وقيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا. وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان »[٣].

ويقول أيضا: « فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها... فإن الأمر والنهي وإن كان متضمن لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به؛ بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته »[٤].

ويقول أيضا: « وإذا اشتبه الأمر استبان حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية. وإذا تركها كان عاصيا، فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهي عنه من الأمر معصية. وهذا باب واسع، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن هذا الباب اقرار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكر بنوع من عقابه مستلزمة

٣) ابن تيمية: الفتاوي المجلد - المحلد ٢١ ص ١٢٧

٤) نفسه صفحة ١٢٨.

إزالة معروف أكثر من بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدا يقتل أصحابه، ولهذا لما خاطب الناس في قصة الافك بما خاطبهم به واعتذر منه، وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه : حمي له سعد بن عبادة مع حسن إيمانه »(٥)

أما الامام القرافي فيلخص شروط الأمر والنهي عن المنكر في ثلاثة يقول رحمه الله : « فللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة شروط : الشرط الأول : أن يعلم ما يأمر به وينهى عنه فالجاهل بالحكم لا يحل له النهي عما يراه ولا الأمر به. الشرط الثاني : أن يأمن من أن يكون يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر منه مثل أن ينهي عن شرب الخمر فيؤدي نهيه عنه إلى قتل النفس أو نحوه. الشرط الثالث : أن يغلب على ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له وأن أمره بالمعروف مؤثر في تحصيله. فعدم أحد الشرطين الأولين يوجب التحريم وعدم الشرط الثالث يسقط الوجوب ويبقى الجواز والندب »(٦).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذن - وهما من واجبات الاسلام ومهماته - هدف بهما الاسلام إلى إيجاد رأي عام قوي واع يستطيع أن يقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم فإذا ترتب عن ذلك منكر أكبر كان السكوت أولى، وأنكر المسلمون آنذاك بما يستطيعون لسانا أو قلبا وليس وراء ذلك إلا الولاء للظلم والظالمين.

٥) نفسه صفحة ١٣١.

٦) القرافي : الفروق - عالم الكتب بيروت، الجزء الرابع ص ٢٥٦.

يقـول ابن تيمية : « وأصـل هذا أن تكون محبة الانسان للمعروف وبغضـه للمنكـر وإرادتـه لهذا، وكـراهتـه لهذا : موافقـة لحب الله وبغضه، وإرادته وكراهته الشرعيين. وأن يكون فعله للمحبوب ودفعه لمكروه بحسب قوته وقدرته، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقد قال (فاتقـوا الله ما استـطعتم). فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة ؛ لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الايمان.

وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكـراهتـه تامـة وفعـل العبد معها بحسب قدرته، فإنه يعطي ثواب الفاعل الكامل »[٥].

ان الحساسية القلبية الشديدة هي الشرط النفسي الاساس فى التغيير. ومن الـلافت الانتبـاه حقا أن الحديث النبوي الشريف[٧] يجعل هذه الحساسية تغييرا على الرغم من أنها عملية قلبية داخلية. أما الشرط الثاني فهو التخطيط العقلي، ذلك التخطيط الذي ينطلق من قاعدة الموازنة بين المفاسد والمصالح، ولا إمكان لهذا التخطيط وهذه المـوازنـة دون علم بالشرع أي بمـراتب المأمورات ومراتب المنهيات وأحوال المخاطبين وآداب الدعوة وحكمتها.

ولهذا اشترط العلماء فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ثلاث

٥) ابن تيمية ـ الفتاوي ـ المجلد ٢١ ص ١٣١.

٧) حديث : « من رأى منكم منكرا. . . ».

خصـال : العلم والرفق والصبر العلم قبل الأمر بالمعروف، والرفق معه، والصبر بعده(٨).

إن حركـة التغـير في الإسلام - ولو أنها مؤسسة في أحد أهم جوانبها على الغيرة على محارم الله أن تنتهك، وعلى الحماسة الايمانية - إلا أنها ليست حماسـة عمياء تفسـد من حيث أرادت أن تصلح، وتتراجع بالعمل الاسلامي خطوات إلى الوراء من حيث تريد أن تدفع به خطوات الى الأمـام. فقوامها إيمان وفقه، وحركة تغيير بدون فقه تتحول إلى إعصار مدمر يحصد الصالح والطالح، والفقه بدون إيمان يتحول إلى تنظير جدلي تبريري لسائر المفاسد والمنكرات.

وإذا كانـت الشروط النفسية للتغيير قد تتهيأ لدى العـاملين بحكم أن العمل الاسلامي يقوم في جوهره على الغيرة على محارم الله؛ فإن الشروط الموضوعية قد لا تكون مناسبة للانكار أو الأمر، ويكون عليهم إذ ذاك أن يصبروا إلى حين تهيؤ ظروف أفضل، أو أن يتجاوزوا مخافة حصول منكر أكبر. فقد ترك النبي ﷺ ما يراه صوابا خشية الفتنة فلم يأمر بقتل أئمة المنافقين كما سبق. وترك بناء الكعبة على قواعد إبـراهيم مخافـة أن يثير فتنة عند قوم لم يتمكن الاسلام من نفوسهم بسبب هدم الكعبـة وبنائها من جديد كما جاء في الصحيح أنه قال لعائشة : « لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لبنيت الكعبة على قواعد إبـراهيم ». ويقـول ابن تيمية : « إني قد مررت على قوم من التتار

(٨) الفتاوي المجلد ٢١ ص ١٣٧.

المتسلطين يومئذ على بغداد فوجدت بعضهم يشربون الخمر في مجلس، فقام أحد العلماء وأراد أن ينكر عليهم شربهم للخمر فقلت له : لاتنكر عليهم، فإن الله إنما حرم الخمر والميسر إنما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء تصدهم الخمر عن سفك الدماء وعن القتل فدعهم في أهون مما عسى أن يرتكبون لو لم يعاقروا بنت الحان ».

موازنة صعبة ومحاذير

والحقيقة أن الموازنة بين الانكار القلبي وبغض المنكر وأهله لا لأشخاصهم بل لذات المنكر الذي يرتكبونه - وبين مراعاة الظروف، والموازنة عند تغيير المنكر بين المفاسد والمصالح مسألة صعبة. ومن هنا كان على الدعاة أن ينتبهوا إلى محظورين اثنين :

أ - الحذر من موالاة الظلم والركون إليه والاستئناس به، هذه الحالة التي تنشأ من طول المدة واليأس عن الاصلاح والاكتفاء بالبلاغ الأول الذي لم تنجم عنه استجابة. إذ الركون إلى الظلم والظالمين مجلبة لسخط الله عز وجل كما ورد في الحديث. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول مادخل النقص على بني اسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لايحل لك، ثم يلقاه في الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا

يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أيديهم... إلى قوله... فاسقون ﴾[9].

ب - الحذر من التعالي على الواقع وكرهه ومقاطعته بدعوى أنه واقع فاسد، فلابد من استمرار عملية التبليغ والدعوة، إذ المؤمن مأمور أن يكره في الظالمين ظلمهم وفي الكافرين كفرهم وإلا فهو ينظر إلى الناس نظرة الطبيب المشفق من حال الضنك الذين يعيشونه بعيدا عن الله. نتأمل هذا في القرآن على لسان مؤمن آل فرعون حين ينادي قومه ذلك النداء المشفق: « يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد. ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد »[10]

« ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار »[11]

والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم، ولكنها مخالطة إيجابية

---

٩) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن. هذا لفظ الترمذي وبقية الحديث « كلا والله لتأمره بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم ».

١٠) سورة غافر الآيات ٣٠ - ٣١ - ٣٢. ورش.

١١) سورة غافر الآية ٤١ ورش.

فاعلة، منكرة للمنكر وداعية إلى الخير، وليست مخالطة سلبية ساكتة عن الحق. فعملية المفاصلة والتميز عملية ينبغي أن تكون على مستوى الشعـور دون أن نخلط بين مفهـوم التميز ومفهـوم التعالي. والولاء للظالمين يمكن أن يكون و « المؤمن » يفاصلهم جسدا بينما قلبه معهم كما في الحـديث : « إذا عملت الخطيئة في الارض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة أنكرها ـ كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها »[١٢]. وبالمقابل فإن صفة الولاء للمؤمنين يمكن أن تتحقق والمومن يخالط المجتمع ويغير المنكر بحسب استطاعته، أو يسكت عنه مخافة وقوع منكر أكبر.

الولاء بين الفهم السياسي والفهم الشرعي :

من بين المفاهيم التي التبس معناها وساء استخدامها عند بعض الـدعاة مفهوم الولاء. والذي ينبغي تقريره أن الولاء مفهوم عقدي وليس مفهوما سياسيا. غير أن استعمالات هذا المفهوم عند البعض قد أفرغته من معناه الشرعي لتحمله بحمولات تجد أصلها في رواسب تجارب سياسية ماضية، تنـطلق أساسا من شعارات المزايدة وإظهار المعارضة والصلابة لجلب الأنصار والزبناء. ومعلوم أن هذه الشعارات قد ارتبطت بمرحلة من مراحل تطور الحياة السياسية في هذا البلد، وارتبطت بالخصوص بتصور انقلابي للتغيير كما كان يتبناه اليسار قبل

---

١٢) رواه أبو داود في كتاب الملاحم باب في الامر والنهي عن محمد بن العلاء بسنده الى العرس بن عميرة الكندي (نقلا عن كتاب : جند الله . سعيد حوى)

أن ينتبه - بعد الخيبة والفشل - إلى أهمية التغيير الثقافي والمشاركة السياسية.

لقد كيفت تلك الرواسب تصور بعض الدعاة لعلاقتهم بمحيطهم وخصومهم، ولحدود هذه العلاقة، وما منها يدخل في الجواز، وما منها يدخل في الوجوب، وما منها يدخل في الندب. وأصبح أي شكل من أشكال العمل داخل المؤسسات المنطلق من قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد في عرف هؤلاء ولاء يستوجب المقاطعة والتشهير بل التشكيك في النيات والمقاصد.

أما أن الولاء مفهوم عقدي فذلك يتضح في أن نصوص القرآن قد جعلته عملا يخرج صاحبه عن الايمان. قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم »[١٣].

وقال تعالى: « ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون. أعد الله لهم عذابا شديدا. إنهم ساء ما كانوا يعملون »[١٤].

وقال أيضا: « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا »[١٥].

١٣) سورة المائدة الآية ٥٣.

١٤) سورة المجادلة الآية ١٤ و١٥.

١٥) سورة النساء الآية ١٣٧ - ١٣٨.

والـولاء المخـرج عن الملة عمـل قلبي بالاسـاس تترتب عليه سلوكات ظاهرة. قال تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الأخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنـات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون »(١٦).

ذلـك أن مودة الكافرين على كفرهم ولذات الكفر الذي هم عليه لا يكون إلا من كافر أو من منافق يظهر الاسلام ويبطن الكفر.

أمـا السلوكـات الـظاهـرة التي تترتب عن المودة القلبية فمنها النصرة والاتباع والطاعة والتشبه. فأما أن النصرة والطاعة من مظاهر الـولاء فذلـك بين في قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ولئن قوتلتم لننصرنكم »(١٧).

ومن مظاهـر الـولاء أيضـا المجـالسـة للكـافرين اختيارا مع استهزائهم بالدين وعدم الرد والغضب والخروج وتمعر الوجه في سبيل الله مع انتفاء المانع. قال تعالى : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفـر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا حتى يخوضوا في

١٦) سورة المجادلة الآية ٢١.

١٧) سورة الحشر الآية ١١.

حديث غيره. إنكم إذا مثلهم. إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا »[١٨]

ومن مظاهر الولاء أيضا الطاعة للكافرين. قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين »[١٩]

ومظاهره أيضا التشبه بالكافرين فيما كان علامة لهم وشعارا. ففي الحديث: « من تشبه بقوم فهو منهم ». ومظاهر الولاء هذه تكون كفرا مخرجا عن الملة إذا كان الدافع إليها محبة للكفار ونصرة لهم واتباع ومخالطة وطاعة لذات الكفر الذين هم عليه. ففي هذه الحالة تصبح هذه المظاهر آثارا تعبر عما في قلب الموالي.

ومن الجائز أن تجد عند مؤمن صفة من هذه الصفات، كما هو جائز أن تجد فيه خصلة من خصال النفاق كالكذب وأخلاف الوعد وخيانة الأمانة والفجور عند الخصومة. فوجود إحدى هاته الصفات عنده ترفع عنه تمام الايمان، بينما هذه الصفات ملازمة للمنافق ومجتمعة فيه، فهي عناصر ثابتة في سلوكه وآثار عن عقيدته فمن الجائز أن تجد عند مؤمن تشبها بكافر أو طاعة له أو مخالطة فتكون هذه المظاهر إذ ذاك دالة على ضعف إيمانه، ويوشك إن لم يتداركها بتوبة وإقلاع أن تصبح لازمة لسلوكه فتنقض أصل إيمانه وهذا بين في آية آل عمران:

١٨) سورة النساء الآية ١٣٩.

١٩) سورة آل عمران الآية ١٤٩ - ١٥٠.

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم»[٢٠]

ولما كان الولاء المذموم مفهوما عقديا أي محله القلب بالاساس فقد رفع الشرع اللوم عن السكوت الظاهر عن المنكر، والمداهنة الظاهرية والركون الظاهر والنصرة الظاهرة والمخالطة الظاهرية التي يكون سببها جلب مصلحة أو دفع مفسدة، ولم يجعلها ولاء مخرجا عن الملة. قال تعالى : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المومنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة » أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه. فمن غير المعقول أن يجمع الانسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه. قال الزمخشري : نهوا أن يوالوا الكفرة فليس ذلك من دين الله في شيء، إلا أن تتقوا منهم تقاة، أي إلا أن تخافوا منهم محذورا أو تخافوا أذاهم وشرهم فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب لأنه نوع من مداراة السفهاء كما روي : « إنا لنبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم ». « ويحذركم الله نفسه » أي يخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى « وإلى الله المصير » فيجازي كل عامل بعمله « قل إن تخفوا ما في صدروكم أو تبدوه يعلمه الله » أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع لا تخفى عليه خافية »[٢١].

٢٠) سورة آل عمران الآية ١٠٠ - ١٠١.

٢١) صفوة التفاسير : سورة آل عمران

وفي حالة الولاء الظاهر فإن المسلم يستمر منكرا للمنكر بحسب استطاعته ؛ فإذا كان للظالمين سلطان على جسده فإنه ليس لهم سلطان على قلبه وليس وراء ذلك إلا الولاء المخرج عن الملة ففي الحديث الصحيح : « ما من نبي بعثه الله في قومه إلا كان له أصحاب وحواريون يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن. ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل »[٢٢]. وبين ﷺ أيضا أن المؤمن إذا أنكر المنكر فقد سلم أي إذا أنكره بيده أو لسانه وإذا كره المنكر بقلبه فقد برئت ذمته. ففي الحديث أنه ﷺ قال : « إنه يول عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن أنكر فقد سلم ومن كره فقد بريء ولكن من رضي وتابع »[٢٣].

وهذا الذي يصدق على الولاء يصدق على لوازمه، وعلى جميع ما في معناه مما ورد النهي عنه في القرآن والسنة كالمداهنة والركون. فبين الامام القرافي رحمه الله أن المداهنة فيها ما هو حرام وما هو واجب وما هو مندوب وما هو مكروه. يقول في الفرق الرابع والستون والمائتان بين قاعدة المداهنة المحرمة وبين قاعدة المداهنة التي لا تحرم وقد تجب، من كتابه الفروق : « واعلم أن المداهنة معاملة الناس بما يحبون من القول

---

٢٢) رواه مسلم

٢٣) رواه مسلم

ومنه قوله تعالى: « ودوا لو تدهن فيدهنون »، أي هم يودون لو أثنيت على أحوالهم وعباداته ويقولون لك مثل ذلك فهذه مداهنة حرام. وكذلك كل من يشكر ظلما على ظلمه أو مبتدعا على بدعته أو مبطلا على إبطاله وباطله فهذه مداهنة حرام لأن ذلك وسيلة لتكثير ذلك الظلم والباطل من أهله. وروي عن أبي موسى الأشعري أنه كان يقول إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم يريد الظلمة والفسقة الذين يتقى شرهم ويتبسم في وجوهم ويشكرون بالكلمات الحقة. فإنه ما من أحد إلا وفيه صفة تشكر ولو كان من أنحس الناس فيقال له ذلك استكفاء لشره. فهذا قد يكون مباحا، وقد يكون مكروها إن كان عن ضعف لا ضرورة تتقاضاه بل خور في الطبع أو يكون وسيلة للوقوع في مكروه فانقسمت المداهنة على هذه الأحكام الخمسة الشرعية، فظهر حينئذ الفرق بين المداهنة المحرمة وغير المحرمة. وقد شاع بين الناس أن المداهنة كلها محرمة وليس الأمر كذلك بل الأمر كما تقرر تقديمه »[٢٤]

وهذه المعاني كانت واضحة في أذهان علماء الاسلام، ولكن امتصاص العقلية المعاصرة لأفهام سياسية وضعية قد استدعت هذا التوضيح والحمد لله رب العالمين.

---

٢٤) الامام القرافي. كتاب الفروق ـ الجزء الرابع ص. ٢٣٦.

الفصل الرابع
العمل الاسلامي وواجب البلاغ المبين

ليس من شك في أن الاسلام دين ودولة، مصحف وسيف. وقد يكون من قبيل المراء أن نناقش أهمية السلطة السياسية الاسلامية التي تصدر عن شرع الله عز وجل في كل كبيرة وصغيرة، تحمي بيضة الاسلام وتقيم حدوده وترفع راية الجهاد باسمه.

قال تعالى: « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز »[1].

غير أن السلطة السياسية الاسلامية تقوم في مجتمع يقر بمشروعية الاسلام، مستعد لأن يطبق عليه حكم الاسلام. لقد كانت يثرب قبيل الهجرة تستعد لتتويج عبد الله بن أبي ملكا فتحولت المشروعية من ابن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حينما دخل الاسلام قلوب الأوس والخزرج، بينما رفض رسول الله ﷺ هذه السلطة في مجتمع لا يشهد شهادة التوحيد ولا يقر بالمشروعية للاسلام. وفي

١) سورة الحديد الآية ٢٤.

السلطة السياسية يوجـد من الاسلام بقدر ما يوجد في الرأي العام للأمة من فهم للدين ووعي بحقائق الاسلام. يقول الأستاذ جودت سعيد : « إن أي حاكم مسلم لم يجرؤ على أن يعلن كفره على الناس بوضوح في هذا العالم الذي نعيش فيه، لا لأن جميع الحكام عندهم القناعة الكافية، وإنما لأنه يعلم أن هذا الاعلان مخالف للعرف العام الذي يصعب الخروج عليه. وقدِ يكون هذا العرف قد فقد ما يعتمد عليه أو ازداد قوة ولكن هذا العرف لا يزال يقوم بمفعوله.

ولكن أريد أن أقول أيضا إن هناك عرفا آخر لم يعد محتفظا بشيء مهـما كان قليلا. ففي الـوقت الذي لم يستطع حاكم مسلم في هذا العصر أن يعلن كفره بالاسلام، لا يوجد أي حاكم استطاع أن يقابل أمم العالم المعاصر بوجهه الاسلامي الصريح، وهذا أيضا معتمد على عرف مسلم به لا يخرج عنه حاكم واحد.

إذا لعلك أيهـا المسلم تمكنت من أن تنظر إلى الموضوع نظرا أعمق قليلا ففهمت معنى : « كما تكونوا يول عليكم » فلا تظن أن هؤلاء الحكـام غير محكـومـين بمفـاهيم المسلمـين ومقرراتهم. فهم ملتزمون التزاما تاما لا يزيدون عليها ولا ينقصون.

---

٢) يشير إلى حديث عبادة بن الصامت الذي يقول فيه : « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان مما أخذ علينا أن بيعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال : « إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ».

فنقول إن هذا مسلم ومتقيد بالاسلام تقيدا تاما، ولكن لا على حسب ما أنزله الله بل على حسب ما في أذهان عامة الناس أي الرأي العام الموجود في الأمة وهذا الوضع هو الذي عطل معنى الحديث[٢]

فهؤلاء الحكام لم يكفروا كفرا بواحا على حسب الرأي العام لأن الكفر الذي أصبح متعارفا عليه عند الرأي العام هو إنكار الاسلام والتصريح بعدم وجود الله. ومن هنا يتبين لنا أن الخصم الحقيقي للاسلام هو مفهوم المسلمين عند الاسلام.

ففي الوقت الذي يعود فيه معنى الكفر البواح عند المسلمين إلى الحدود التي وضعها الله بين الايمان والكفر في مثل قوله: « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم... ».

نكون قد أحدثنا عرفا جديدا لا يستطيع أن يخرج عليه أعتاهم، فهم يخافون أن يعرفوا أنهم كافرون كفرا بواحا أشد من خوفك من وسائل القوة التي في أيديهم والتي تتمناها أن تصير في يدك، فهل عرفت ما عندك من وسائل، ولا تعرف من قيمة استعمالها شيئا. فهي في موضع العطالة كما كل شيء في العالم الاسلامي في موضع العطالة. ثم أتظن أنك إذا صار لك الحكم تستطيع أن تستفيد منه وأنت أعجز الناس عن الاستفادة من أعظم قوة عندك »[٣].

---

٣) جودت سعيد: مذهب ابن آدم الأول أو مشكلة العنف في العمل الاسلامي. ص ٧٣ - ٧٤.

إقامة الحجة لا القضاء :

إن العجلة السياسية بالاضافة إلى أنها غيبت عن أعين بعض العـاملين سنن التمكين، كادت أن تغطي أيضا على أصل كبير من أصول الدعوة وهو إبراء الذمة وإقامة الحجة. فالأصل في الدعوة هو هداية الخصم وإنقـاذه من الضلال وليس القضاء عليه وإزالته من الوجود، ولا يزال موقف الرسول ﷺ من الطلقاء فيصلا حاسما بين منهاج النبوة والدعوة وبين أهواء طلاب الأرض والدنيا، وقبسا منيرا يثبت أن الغاية من الدعوة هي الحاق الرحمة بالناس وإخراجهم من حياة الضنك التي هي مصير محتوم لمن ضل سبيل الايمان.

قال تعالى : « قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته »[٤].

في هذه الآية يتوجه الخطاب إلى رسول ﷺ يدعوه إلى التبليغ والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ، فلن يجيره من الله أحد ولن يجد من دونه ملتحدا إلا أن يبلغ هذا الأمر ويؤدي هذه الأمانة. فهذا هو الملجأ الوحيد، وهذه هي الاجارة المأمونة[٥].

وقال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعـده وأوحينـا إلى ابـراهيم واسـماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط

٤) سورة الجن الآيات ٢٢ - ٢٣ .

٥) في ظلال القرآن ـ تفسير سورة الجن.

وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما. » (٦).

وإنـه موكب هائـل من الرسل الذين وصل إلينا خبرهم ومن الـذين لم يصـل تكفل الله عز وجل بذاته العلية بتهيئتهم وإرسالهم منذرين ومبشرين للبشرية حتى يعذر للناس بعد البلاغ. والدعاة ورثة الأنبياء وجب أن يقفوا عند هذه الحقيقة طويلا، ويقفوا عند طبيعة البـلاغ الـذي أمروا به. إنه البلاغ المبين الذي لا تبقى معه حجة للمعارضين بعد دعوة الدعاة الذين هم ورثة الانبياء. فمصائر البشرية كلها منوطة بالرسل وأتباعهم من بعد، وعلى أساس قضية مصير هذه البشرية التي إما أن تبلغ هذه الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة وإما أن لا تبلغ « البلاغ المبين » فتكون لهاحجة على ربها بعد دعوة لم تكن في مستوى دعوة الرسل. وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف بالتبليغ فلم يبلغ! فلابد إذن من إقامة الشهادة على العالمين، ولابد منأن نسلك أحسن الوسائل وأن ندفع بالتي هي أحسن ونصبر على المخالفين حتى تقوم الحجة على المعرضين ويتحول العدو إلى ولي حميم « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »(٧).

٦) النساء ١٦٢ - ١٦٤.

٧) فصلت ٣٤.

لابد أن ترتفع الدعوة إلى مستوى إقامة الحجة، ولابد أن تتوسل إلى ذلك بجميع الوسائل المشروعة وأحسنها للقيام بهذه العملية والمتأمل اليوم لواقع مجتمعاتنا والمجتمعات الانسانية عامة من جهة، ولوسائل الدعاة وإمكاناتهم التبليغية يعلم أن عملية البلاغ المبين لاتزال دون المستوى المطلوب، ولا تزال تقف دونها عراقيل وحواجز ليست كلها بالضرورة عوائق سياسية. إن القرار السياسي اليوم لم يعد يصنعه ثلة من مالكي الأجهزة التنفيذية بل لقد أصبحت اليوم هناك مراكز قرار مختلفة تتدخل في صنع هذا القرار، ومنها مراكز القرار الاقتصادية والتربوية والثقافية والاعلامية. وإن وقوف هذه المراكز في وجه الحل الاسلامي قد يكون أخطر وأقوى من معارضة أي جهة سياسية له. فالاعلام المتطورة اليوم مثلا يعتبر في خطورته أشد من وسائل الخراب والتدمير. فإذا كان الهجوم السافر على مقومات أمة عادة ما يستنفر فيها قواها الدفاعية ويدفعها إلى إثبات وجودها فإن الاعلام المعاصر لا يدمر البنايات ولا يخرب العمرأن، وإنما يدمر العقول ويخرب الارادات ويضل الامة من داخلها بقلب الحقائق إلى أباطيل، والأباطيل إلى حقائق، بل إنه يزرع الاهتمامات ويعيد صياغة للانسان موظفا في ذلك أحدث ما وصلت إليه العلوم التجريبية والانسانية على حد سواء. فأين نحن اليوم - في إطار هذا الواقع وفي ضوء هذه الحقائق - من عملية البلاغ المبين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الدعوة والبلاغ بالتي هي أحسن حتى ينقلب العدو إلى ولي حميم؟ أين نحن من ذلك والبعض يريد القفز من فوق السنن ويختزل واجب الدعوة في

مجرد التغلب على الخصم بشذخ رأسه والقضاء عليه بينما منهج النبوة والدنيا من حولنا تمارس التغيير من الداخل ؟[٨]

مواقف نبوية

إن السيرة النبوية تعلمنا أن الغاية من الدعوة على المستوى الاجتماعي هي إلحاق الرحمة بالناس وتخليصهم من أنواع العبوديات، وإنقاذهم من حياة الضنك نتيجة إعراضهم عن منهج الله وتغيير مواقفهم من الايمان إلى الكفر[٩].

لقد كان موقف الرسول ﷺ بعد أن كان يلقى من أعدائه الاعراض والصدود موقف المشفق على المعرضين الذين آذوه، غير

---

٨) انتبهت إلى هذا الأمر حتى الحركات السياسية الوضعية فنجد اليسار اليوم يؤكد على أهمية المسألة الثقافية في التغيير، ويطرح مفهوما جديدا لمفهوم السلطة السياسية بعد تجارب الفشل والعزلة التي عانى منها في طرح مشروعه داخل المجتمعات الاسلامية.
يقول الدكتور جسوس « إن مجال السياسة لازال مجالا مختزلا بالدرجة الأولى، لأن السياسي يطرح عندنا كما لو كانت مسألة نظام الحكم والسلطة السياسية هي وحدها المهمة، ولا تهم بالمقابل مسألة السلطة المعرفية، والسلطة التربوية، والسلطة الأسرية، والادارية، . . . إلخ وكما لو كان لا يهم إلا أجهزة الدولة والحكم، دون أن تهم الأسرة والمدرسة والجامعة، ولا الادارة والمعمل. بعبارة أخرى إذا أردنا البحث عن وسائل فعالة تتجاوز هذه الأوضاع الرديئة، فإن من أولوية الأولويات ضرورة الانتقال من النقاش السياسي بمعناه الاختزالي إلى طرح إشكالية السلطة في مختلف تجلياتها » مجلة الوحدة ع ٦.
ونحن بحمد الله ننطلق في تصورنا هذا من روح الاسلام ومنهج النبوة ولا نلتمس التأكيد لقناعاتنا إلا فيه

٩) انظر كتاب الأمة : نظرات في مسيرة العمل الاسلامي للاستاذ عمر عبيد حسنة.

اليائس من النـاس، بل موقف الـراجي أن يكـون الخـير في عقب المعرضين وأصلابهم إن هم كتبت عليهم الشقوة ولم يرجعوا إلى الله .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؛ قال : يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبـد ياليل بن عبـد كلال فلم يجبني إلى ما أردت . فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا « بقرن الثعالب » فرفعت رأسي فإذا سحـابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليه، وقـد بعث إليك ملك الجبـال لتأمره بما شئت فيهم . . فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد . . . إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك مما شئت . . إن شئت أطبق عليهم الأخشبين أي جبلي مكة . فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا »[(١٠)].

إنـه يوم أشـد من يوم أحد حيث استشهد سبعون رجلا من أصحابه وشج رأسه وكسرت رباعيته ورفعت فيها شعارات الكفر على أرض المعـركـة يقول أبي سفيان : « أعل هبل » . ومع ذلك كله لم يستعجل النبي ﷺ الدعاء على قومه ولم تحكم تصرفاته ردود الفعل ولم يخرجه الموقف عن منهج النبوة ولم يحمله العجز على الانتقام .

(١٠) رواه البخاري ومسلم .

ولكنه ﷺ كان ينطلق من فهم حقيقي للطبيعة البشرية في مواجهتها وتعاملها مع الدعوات الجديدة. فاستجابة البشر للجديد عموما، ولدعوة التوحيد خصوصا ومتطلباتها في التصور والسلوك، تختلف باختلاف ماران على فطرهم من ركام الشهوات والمصالح وثقل الإلف والعادات والتقاليد. وانطلاقا من هذه المعرفة الدقيقة بطبيعة النفس البشرية كان ﷺ يصر على الدعوة ويقدمها بمختلف الأساليب، يخاطبهم أفرادا وجماعات، سرا وعلانية، ويغشى مجاميعهم وأسواقهم ومواسمهم، وينتقل بالدعوة إلى القبائل لا يفت من عزيمته إعراض أو تكذيب أو إذابة. فعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: لقد كان رسول الله ﷺ يخرج في المواسم فيدعو القبائل. ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل دعاءه فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبل القبائل يعود إليهم سنة بعد سنة حتى ان القبائل منهم من قال: ما آن لك أن تيأس منا »[11]

وكان أدبه ﷺ وصبره على المخالفين وتواضعه ورحمته. كل ذلك كان رصيدا يثقل به ميزان الدعوة، وتكتسب من خلاله كلمتها مواقع أقدام متقدمة مع الأيام، وتنتزع بفضله باستمرار من صف الشرك أعمدته وأركانه مما لا تستطيع النظرة العجلى تصوره والتنبؤ بإمكانية حدوثه. فالدعوة الحكيمة لا يمكن إلا أن تؤتي أكلها بإذن ربها، وإلا أن تحدث مع المدة شرخا في صف الشرك لأن الحق الذي تحمله الدعوة تعرفه الفطر واختراق الحجب التي تمنعها من رؤية الحق. ولا يمكن

(11) اخرجه أبو نعيم في الدلائل.

لحركـة دعوية حكيمة إلا أن تسير باطراد حينما تكون المعركة مـ ـة واضحة غير ملتبسة، وإلا فمن كان يتصور أن جبار قريش عمـ ـ بن الخطاب الذي ذهب لتأديب أخته عندما علم بخبر إسلامها سيرجع بعد حين مؤمنا متأدبا بأدب الاسلام ؟ ومن كان يتصور أن خالد بن الـوليد الـذي كان أحـد أسباب هزيمة المسلمين يوم أحد وأشدهم تنكيلا بالمؤمنـين في المعـركـة سيكون أحد قادة فتح مكة وسيف الله المسلول بعـد ذلـك ؟ ولكنهـا حكمة الرسول ﷺ ومعرفته بالطبيعة البشرية في مواجهتها للحق، وحكمته في الوصول بالدعوة إلى النفوس التي لاتزال بها بقية خير هي التي انتصرت في النهاية. وقد كان من الممكن أن تجفل هذه النفوس وتزداد عنادا وتكبرا لو لم تحسن الدعوة الراشدة سياستها بالحكمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنـه أن أعـرابيا جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في شيء. قال عكرمة رضي الله عنه : أراه قال في دم، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا ثم قال : أحسنت إليك، قال الأعرابي : لا ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه. فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا. فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقـال : إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت. فزاده رسول الله ﷺ شيئا. وقال : أحسنت إليك. فقال الأعرابي : نعم فجازاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال نعم. فلما جاء الاعرابي قال رسول الله ﷺ إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال. وإنـا قد دعـوناه فأعطيناه فزعم أن قد رضي، كذا يا أعرابي، فقال

الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ! فقال النبي ﷺ : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا. فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها ! فتوجه إليها وأخذ من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها. واني لو اصعتكم حيث ما قال ما قال لدخل النار » (١٢).

هكذا يؤكد الرسول ﷺ اعلم الناس بطبيعة النفس البشرية في مواجهتها للحق وأرفقهم بها تماما كعلم صاحب الناقة بناقته ورفقه بها. وتأمل في هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ عجلة الناس في رد الناقة لصاحبها، تلك العجلة التي لم تزدها إلا نفورا، وحسن سياسة صاحب الناقة لناقته ومخاطبته باللغة التي تستجيب لها ؛ تأمل ذلك كله تعلم أن رعونة الدعاة قد تكون من أسباب إيراد الناس النار.

إنها نفسية جديدة ندعو لها في وسط الدعاة : نفسية تقوم على الاشفاق على الناس من حياة الضنك في الدنيا وسوء المصير في الآخرة، نفسية تنطلق من أن الأصل في الناس الخير وأن الشر عارض، لا نفسية الادانة والاتهام التي تنطلق من أن الشر في الناس هو الأصل وأن الخير عارض، فنعمل على تنمية جوانب الخير وتقليص جوانب الشر، ولا شك ان اعادة ترتيب هذا التصور في اذهان الدعاة

---

١٢) أخرجه البزار.

من شأنه ان يحدث انعكاسات خطيرة على مستوى نظرتنا إلى واقعنا الذي نتعامل معه وندعو فيه وعلى وسائل العمل وحدوده وعلى مردوديته ونسبة الاداء فيه.

التضحية المبصرة وسيلة للبلاغ المبين

قد يعترض البعض فيظن أن الدعوة إلى مراعاة سنة التدرج وانتهاج أسلوب البلاغ المبين إماتة لروح الجهاد وإيثار للأسلوب السهل، وتهرب من مسؤوليات الدعوة وما يترتب عليها من تضحيات. اننا على العكس من ذلك ندعو إلى ترشيد التضحية أي الى تضحية مبصرة تتحول إلى وقود للدعوة، وتعمل باستمرار على تغذية معسكر الحق بمزيد من الأنصار. إنها تضحية دائبة مستمرة وعطاءات مستديمة تتطلب نفسا طويلا، وتتطلب قبل كل شيء نضجا في الرؤية وامتلاكا للأعصاب وصبرا على الخصوم، وتعهدا للبذرة حتى تنضج الثمرة ويحين قطافها بإذن ربها - إن الذي لا يملك أن يكف يده ويصبر على خصومه، ويستمر في الصدع بدعوته على الرغم من الأذى الذي يلقاه في طريقه والصدود عن دعوته ؛ لا يملك أن يرفع السيف للقتال في سبيل الله.

إن التخلي عن منهج البلاغ بدعوى تسريع السير واختصار المسافة هو عدول عن منهج النبوة وقفز من فوق السنن فتكون النتيجة تأديب إلهيا مترتبا على عدم مراعاة سنة الله في خلقه ومن هنا وجب أن نميز بين نوعين من الابتلاء :

أ - ابتلاء طبيعي يأتي بعد استفراغ الوسع واستكمال الأسباب في حدود الطاقة من إخلاص في النيات وصواب في العمل ومراعاة لسنن التغيير النفسي والاجتماعي. هذا الابتلاء يكون نتيجة للسير في الطريق الصحيح وهو يغذي مسيرة العمل في الطريق الصحيح ويدفعها إلى الأمام ويزيل العقبات من أمامها. وهو ابتلاء يصيب أفرادا يريد الله أن يزكيهم ويختارهم إلى جواره ويجعلهم منارات تهتدي بها الأجيال اللاحقة. أما الفكرة والاتجاه وعموم المؤمنين الذين يحملونها فيمكن لهم في الأرض فيظهرون على الشرك والضلال.

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا »[13]

هذا النوع من البلاء ينسبه الله مباشرة إلى نفسه فيقول: « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب »[14].

ويقول: « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين »[15].

١٣) الآية ٥٣ من سورة النور.

١٤) سورة البقرة الآية ٢١٢.

١٥) سورة البقرة الآية.

هذا النوع من الابتلاء والتفضحية المبصرة نجد لها نموذجا في حديث الغلام الذي آمن بالله عز وجل في ظل ملك ظالم كافر جرب عليه كل أصناف البلاء كي يتراجع عن دينه. فكان كل مرة يتوجه إلى الله عز وجل قائلا: « اللهم اكفنيهم بما شئت » فينجيه الله من أعوان الملك الظالم. فقال للملك في النهاية: « أنت لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل بسم الله رب الغلام، ثم ارم، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران. وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه، أوقيل له اقتحم[١٦].

لقد انتشر نور التوحيد من حيث أراد هذا الظالم أن يطفئه ووقع ماكان يحذر حينما جرت المعركة بين الحق والباطل في واضحة النهار وأمام الملأ. ورغم النهاية المأساوية للمؤمنين، تلك النهاية التي تصورها سورة البروج، فقد كانت رغم ذلك نصرا للمؤمنين ونصرا لعقيدة التوحيد، بقي رصيدا للبشرية من بعد وللأمة الاسلامية تتلوه في قرآنها وتتخذ منه العبرة وتستلهم منه الموعظة.

---

١٦) رواه مسلم.

ب ـ ابتلاء يأتي نتيجة لتنكب الطريق الصحيح، وعن قلة أخذ بالأسباب ومخالفة لسنن التغيير النفسي والاجتماعي، سواء كانت هذه السنن متعلقة بالتغيير النفسي الايماني الذي لم يبلغ درجة من القوة بحيث يترتب عنه تغير ما بالقوم (المجتمع)، أو بالشرط العقلي للتغيير المتعلق بمراعاة سنة التدرج والموازنة بين المفاسد والمصالح في التغيير، واختيار أحسن السبل والوسائل في البلاغ بما يناسب طبيعة الأوضاع المحيطة بالدعاة، وبما يتلاءم مع عصرهم وبيئتهم. والقرآن يعرض علينا نموذجا من هذا البلاء الذي أصاب الصف الاسلامي يوم أحد والرسول ﷺ لا يزال بين ظهراني الصحابة، إذ يعري الموقف ويبين أن السبب المباشر في البلاء كان نتيجة نقص في بعض النفوس، وأخطاء وقعت من فشل وتنازع في الأمر وعصيان لأوامر القيادة وميل بعض النفوس لحطام الدنيا. ولولا فضل الله عز وجل وعفوه لكانت المصيبة أعظم. يقول تعالى: « حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المومنين »[17].

ولقد كان البلاء شديدا إذ قتل سبعون رجلا من الصحابة فيهم سيد الشهداء حمزة، وكسرت رباعية رسول الله ﷺ، وأكثر من ذلك الاشاعة المزلزلة المتمثلة في سريان خبر كاذب بمقتل رسول الله ﷺ.

---

١٧) سورة آل عمران الآية ١٥٢.

وحينما استغرب الصحابة ما وقع وهم الصف المؤمن الموعود النصر كانت الاجابة صريحة وحاسمة : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم »[١٨] .

إنه ابتلاء مرتبط بنقص في الأخذ بأسباب النصر وخلل في شروطه النفسية والمادية ؛ ولكن ذلك الخلل لم يصل درجة من الخطورة بحيث يصل البلاء إلى درجة انحسار المد الاسلامي والفكرة التي من ورائه، إذ كان رصيد الخير والقوة في الصف الاسلامي آنذاك راجحا على رصيد الضعف والخطا. يدل على ذلك سرعة انتباهه واستخلاصه للعبرة ولملمته للجرح ومواصلته للمسيرة. فقد كانت استجابة الصحابة رضوان الله عليهم سريعة لأمر الرسول ﷺ عندما نادى في الذين اشتركوا في معركة أحد دون المتخلفين للخروج وملاحقة المشركين في اليوم التالي بحمراء الأسد. يقول سيد قطب رحمه الله : « وينظر الانسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف فيحس كأن كيان الجماعة كله قد تبدل بين يوم وليلة. نضجت وتناسقت واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها. وانجلى الغبش عن تصورها. وأخذت الأمر جدا كله. وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة التي حدثت بالأمس فقط في التصورات والصفوف. فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بين الجماعة اليوم وموقفها بالأمس . . . والفارق هائل والمسافة بعيدة. لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس، وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا،

---

١٨) سورة آل عمران الآية 165 .

أطار الغبش وأيقظ القلوب وثبت الأقدام وملأ النفوس بالعزم والتصميم »[19].

لقد كان رصيد الخير إذن في الصف الاسلامي أكبر من هذا الخطأ الذي وقع، دليل على سرعة الاستجابة للنداء الجديد واستفادته من درس الواقع. أما حينما يكون رصيد الخبث هو الأكبر فإن الأمر قد يصل إلى حد هلاك الصف الاسلامي ولو كان فيه قليل من الخير والصلاح. فعن أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: لا إلـه إلا الله ! ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الابهام والتي تليه. فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا كثر الخبث »[20].

ونحن لا نريد أن ننفي قدر الله في هذا النوع الثاني من البلاء إذ كل شيء في التصور الاسلامي يرجع إلى مشيئته المطلقة وحكمته سبحانه، ولكن نريد أن نركز على الدور الذي يثبته التصور الاسلامي للأسباب والسنن التي تتناقض بحال مع القول بالمشيئة المطلقة والحكمة الربانية الكامنة وراءها. فقد أثبت القرآن - بعد أن ربط البلاء الذي أصاب المؤمنين بما كسبت نفوسهم - أن الأمر في نهاية المطاف هو بإذن الله. « أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أنى

---

١٩) في ظلال القرآن المجلد ١ ص ٥٢١ الطبعة التاسعة

٢٠) متفق عليه.

هذا قل هو من عند أنفسكم. إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا... »[٢١].

إن التضحية المبصرة تتحول إلى نوع من البلاغ المبين، ذلك أنها تكشف الهويات، وتجعل خلفية الصراع واضحة، وتحرر المسلم وتدفعه لتحمل تبعة التزامه وتخلق في نفسه الاستعداد لتحمل نتائجه، وتجعل الرأي العام طرفا لا متفرجا. أما حينما يستعجل الدعاة البلاء بمحاولة القفز من وراء السنن والرغبة في اختصار المسافة، فإنه يتحول إلى عرقلة في وجه العمل الاسلامي، ومصدر رعب بالنسبة لعموم الناس خصوصا إذا انزلق الدعاة إلى مناهات العنف والغموض فتشوه حقيقة الدعوة والدعاة[٢٢].

إن هذا المنزلق تكون نتيجته الطبيعية « أن يضرب الحصار على الانسان المسلم... ويدور الصراع في المناطق التي ينهار فيها وليس في المناطق التي يتولد فيها التحدي عنده، فيصبح بذلك في موقف الدفاع وخصومه في موقف الهجوم... وهكذا يجرد المسلم من أشد أسلحته فعالية لأن قوة المسلم تأتي من اعتزازه بهذا الدين. فإذا انسلخ منه لم تبق له قوة. وهكذا يحدث الصراع في الظلام، ويطارد المسلم مفصولا عن إسلامه، بل قد تؤخذ الفتوى من المراكز الدينية في استباحة دمه

---

٢١) انظر تعقيب سيد قطب على الآية فقد أفاض وأجاد.

٢٢) خالص جلبي - في النقد الذاتي (بتصرف كبير).

وأنه خارجي أو ما شابه، وهكذا يطارد المسلم كمهرب حشيش وليس لصاحبه قضية يريد دفع شحنة الحياة في أمته »[٢٣].

لهذا كان لابد من إعادة الصراع إلى وضعه الصحيح، الوضع الذي يكون فيه المسلم في موقف التحدي الكامل، حيث ينقلب من مأجور مرتزق إلى شهيد بر كما حدث لسحرة فرعون الذي انقلبوا من الكفر إلى الايمان في صورة إعلان تحد كامل « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين »[٢٤].

خاتمة

هذه مجموعة من المفاهيم والتصورات نقدمها لجمهور الدعوة الاسلامية، ونحن نعلم أن الوصول إلى هذه الأهداف والمثل الدعوية والحركية التي تحدثنا عنها ليس باليسير، إذ تحول بيننا وبينه عراقيل كثيرة :

- تحول بيننا وبينه مألوفات ترسخت في مرحلة من مراحل الدعوة هي مرحلة طفولتها، ومثل هذه المألوفات من أرسخ الاشياء في الشعور والعادات الدعوية.
- تحول بيننا وبينه الانحراف والكفر والضلال والشيطان الذي يؤز أصحابه أزا حتى لاتقوم للاستقامة والايمان والهداية قائمة.

٢٣) نفسه ص ٢٦٠.

٢٤) نفسه من ص ٢٥٨ إلى ص ٢٦٦.

ـ تحول بيننا وبينه الصورة القاتمة المخيفة التي تكونت عن العمل الاسلامي نتيجة عوامل التحريض الخفي والعلني الذي وجد في تنطعات بعض المحسوبين على الدعوة وتصوراتهم سندا له وتأكيدا. فللعمل الاسلامي تجربة تاريخية فيها ايجابيات وفيها أخطاء أيضا، هذه الأخطاء تحسب على كل عمل إسلامي ناشيء انطلاقا من الصورة المهولة التي رسمتها وسائل الدعاية المعادية من صليبية وشيوعية وماسونية تلك الدعاية التي ركزت على الاخطاء وأبرزت الداعية المسلم في صورة من لا يعرف إلا العنف والتربص للقضاء على خصومه.

إن هذا كله يتطلب من الاسلاميين جهدا مضاعفا لتصحيح الصورة وإعادة الأمور إلى نصابها. وحينما ندعو إلى تقديم الدعوة في إطارها الحقيقي باعتبارها دعوة خير وهداية وليس دعوة طلاب دنيا ورئاسة، فإننا لا ننطلق من منطلقات المناورة السياسية التي أملت على كثير من الاتجاهات السياسية إعادة تقييم فكرها وسياستها. إننا لسنا تجمعا موضعيا ودعوة ظرفية، بل إننا دعوة ضاربة في جذور الزمن موصولة بركب التجارب السابقة تجارب الانبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم وعلى رأسهم محمد ﷺ.

إننا ننطلق من أننا نعيش في القرن العشرين وهو قرن التحديات الفكرية والعلمية والحضارية والتكتلات الأممية. إننا لا نواجه أزمة سياسية تتطلب حلا سياسيا وينتهي الأمر بل إننا نعاني من تراجع حضاري. والامم اليوم لاتفكر ليومها وليلتها بل تفكر لأجيال

المستقبل وتنقل الصراع من إطاره الضيق المباشر إلى إطاره الحضاري الواسع.

وحري بالمسلمين أن يرتفعوا إلى مستوى هذا الادراك. فإسرائيل قد خطط لها منذ قرن أو يزيد. ولكي تستمر إسرائيل هناك مخططات تنفق ليس على الأرض المحتلة وحسب بل تنفذ على مستوى العالم وخصوصا على مستوى العالم الاسلامي، لأن اسرائيل تعرف أنها لا تواجه الانسان المسلم في فلسطين بل تواجهه في كل مكان من العالم.

وأخيرا فإننا لم نركز إلا على الجانب الداخلي من القضية، ولم نقف عند المكر الخارجي والتآمر الدولي. ذلك أننا ندرك ـ انطلاقا من منهج الاسلام ـ أن الأمة إنما تؤتى من داخلها ومن نفوس أبنائها. فالمكر الخارجي ثابت لم يتغير، وقد يكون من باب تحصيل الحاصل الحديث عن تآمر الاعداء، إذ لا يمكن أن تنتظر من اليهود والنصارى والمنافقين غير المكر للاسلام ودعاته. ولكن ما نملك هو نفوسنا، إذا غيرناها غير الله ما بنا وامكننا اذ ذاك الوقوف في وجه المكر الخارجي مهما كان خبيثا ومهما كان قويا. قال الله تعالى: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا».

وقال: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم».

وقال: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسكم»

صدق الله العظيم

الفهرست

الكاتب في سطور

- الإسم : محمد يتيم.
- ازداد بالدار البيضاء ١٦/٥/١٩٥٦.
- إجازة في علم النفس - خريج المدرسة العليا للاساتذة (شعبة الفلسفة) - شهادة الدراسات المعمقة في علم النفس التربوي.
- يعمل أستاذاً للفلسفة والفكر الإسلامي.
- له عدة مقالات، في مجلات وصحف مغربية وعربية، في الفكر الإسلامي، تتناول بالخصوص قضايا الصراع الفكري المعاصر.